مجلة جامعة الملك سعود، م ١٣، الآداب (١)، ص ص١٢٧-١٦٦ (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

تحليل تاريخي لموقف الدولة الأموية من خروج ابن الأشعث عليها [٧٩ - ٨٣هـ/ ٦٩٨ - ٧٠٢م]

محمد بن ناصر بن أحمد الملحم

أستاذ مشارك ، قسم الجغرافيا ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ٤/ ١٢/ ١٤١٨هـ ؛ وقبل للنشر بتاريخ ١٠/ ٨/ ١٤١٩هـ)

ملخص البحث . فقد تناول هذا البحث التعريف بابن الأشعث ، وحملته على بلاد الترك ، والخلاف بينه وبين واليه الحجاج ، وموقف الجند من هذا الخلاف ، ثم ألقيت الضوء على بعض العوامل التي أجّجت هذا الخلاف كالعصبية العراقية ودور الموالي ، وطبيعة المجتمع العراقي ، ثم بينت موقف الدولة الأموية عامة من ابن الأشعث ، وأهم ما ترتب على خروجه ، وذّيلت هذا البحث بخاتمة أوضحت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

مقدمة

فقد حفل العصر الأموي بالكثير من الموضوعات التي تستحق الدراسة والوقوف عندها لبيان حقيقة الأمر فيها ، خاصة وأن بعضها مازال محل خلاف بين المؤرخين حتى اليوم ، ومن هذه الموضوعات « خروج عبد الرحمن بن الأشعث على الدولة الأموية » (٧٩ - ٨٣هـ/ ٦٩٨ - ٧٠٢ م) الذي كان واحدا من القادة الذين ألقي على عاتقهم حمل لواء الإسلام ونشره في بلاد الشرق ، وبين عشية وضحاها عاد وانقلب على الدولة ، وقاتلها

كما قاتلها الأعداء. فما دوافعه لهذا، وهل هذه الدوافع تستحق أن يشقّ عصا الطاعة، ومَنْ وراء هذه الدوافع، وما الذي ترتب عليها؟ هذا ما دفعني لخوض غمار هذا البحث.

وتناولت فيه: التعريف بابن الأشعث، وحملته على بلاد الترك، والخلاف بينه وبين واليه الحجاج، وموقف الجند من هذا الخلاف، ثم ألقيت الضوء على بعض العوامل التي أجّجت هذا الخلاف كالعصبية العراقية، ودور الموالي، وطبيعة المجتمع العراقي، ثم بينت موقف الدولة الأموية عامة من ابن الاشعث، وأهم ما ترتب على خروجه، وذيّلت هذا البحث بخاتمة أوضحت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

تعريف بابن الأشعث

يقتضي منهج البحث إلقاء الضوء على حياة هذا القائد، الذي أضحت جهوده في خدمة الدولة الأموية واضحة، ثم عاد وانقلب عليها، وربما يُظهر التعريف به بعض جوانب شخصيته التي جعلته ينتهج هذا السلوك.

فهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[١] بن قيس بن معد يكرب بن

(١) الأشعث بن قيس رضي الله عنه، يكنى أبا محمد، سمي أشعثا لشعث رأسه، وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلاً من كندة فأسلم، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يبايع أبا بكر رضي الله عنه، فحاربه عامل أبي بكر حتى استأمنه على حكم أبي بكر، وبعث به إليه، فسأل أبا بكر أن يستبقيه ويزوجه أخته -أم فروة- ففعل ذلك أبو بكر فولدت له محمد بن الأشعث، توفي سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠ م. التفاصيل في: محمد بن سعد، *الطبقات الكبرى*(بيروت: دار صادر، ١٣٨٠هـ)، ٥: ١٠، ١١؛ عبد الله بن مسلم بن قتيبة، *المعارف*، تحقيق ثروت عكاشة، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٨هـ)، ٣٣٣؛ يوسف بن عبد الله بن عبد البر، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق محمد البجاوي (القاهرة: د. ن: د. ت.)، ١: ٢٢٠؛ علي بن محمد بن الأثير، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.)، ١: ٩٧، ٩٨؛ يوسف المزي، *تهذيب الكمال في أسماء الرجال*، ط ٦ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ)، ٣: ٢٨٦؛ أحمد بن حجر العسقلاني، *الإصابة في تمييز الصحابة* (القاهرة: مكتبة ابن تيمية: ١٤١٤هـ)، ١: ٧٩، ٨٠؛ وانظر: *تهذيب التهذيب*، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ١: ٣٢٥.

معاوية [٢] الكندي ، نسبة إلى قبيلة كندة، [٣] التي كان رئيسها جدّه الأشعث ، الذي أسلم في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم . ولما علم بوفاته ارتد عن الإسلام وحارب عمال الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي حرب الردة تم الانتصار عليه وأسره ، ثم أحضر إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالمدينة فعفا عنه ثم زوجه أخته وهي أم محمد ابن الأشعث .

وبعد أن صارت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان رأى الأشعث وأبناؤه الوقوف إلى جانب الدولة الأموية وخدمتها ، رغبة في عدم توسيع شقة النزاع التي كانت بينه وبين علي رضي الله عنه ، ومع مرور الوقت أصبح محمد بن الأشعث - والد عبد الرحمن - أحد أبرز المجموعة التي اعتمد عليها الأمويون ، والمعروفة بالأشراف . [٤]

وأمه أم عمران [٥] بنت سعيد بن قيس الهمداني ، وهي امرأة عاقلة ، ولم يكن بالعراق امرأة أكرم على الحجاج بن يوسف الثقفي منها لشرفها في قومها . [٦]

---

(٢) محمد بن حبيب البغدادي ، *المحبّر* (بيروت : دار الآفاق الجديدة، د. ت.) ، ٢٤٤ ؛ أحمد ابن محمد بن خلكان، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان* (بيروت : دار صادر، د.ت.)، ٤ : ٣١٠ ؛ محمد بن أحمد الذهبي ، *سير أعلام النبلاء* ، ط١ (د.م. : د.ن. ، ١٤٠٣هـ)، ٤ : ١٨٣ ؛ أظهر المباركفوري، *العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد من الصحابة والتابعين* ، ط ٢ (بومباي : دار الأنصار، ١٣٩٩هـ) ، ١٢٧ .

(٣) هي : فرع من كهلان ، وكان بها ملك بالحجاز واليمن . . . البقية في : ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* (بيروت : دار بيروت، ١٤٠٤هـ)، ٤ :٤٨٢ ؛ أحمد بن علي القلقشندي ، *نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب* (بيروت : دار الكتب العلمية، د.ت.) ، ٣٦٦ .

(٤) أحمد بن داود الدينوري ، *الأخبار الطوال* ، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٣٧٩هـ)، ٢٣٩ ؛ محمد ابن أعثم الكوفي ، *الفتوح*، ط ١ (الهند : دار اللواء، ١٣٩٥هـ)، ٧ : ١١٧ ؛ ابن الأثير، *أسد الغابة*، ١ : ٩٨ ؛ إبراهيم بيضون ، *من دولة عمر إلى دولة عبد الملك* (بيروت : دار النهضة العربية، ١٤١١هـ) ، ٢٧٠ ، ٢٧١ . هم من يأخذون شرف العطاء من الديوان وهو تقريبا أعلى رقم في العطاء يتجاوز ٢٠٠٠ درهم .

(٥) عمر بن بحر الجاحظ ، *البيان والتبيين* ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٤ (القاهرة: د.ن. ، ١٣٩٥هـ)، ٢:٥٨ .

(٦) ابن أعثم : *الفتوح*، ٧:١٠٨ .

ولد عبد الرحمن بن محمد ونشأ في أسرة شريفة تقطن أرض الكوفة، [٧] وكان لهذه الأسرة مكانة كبيرة بين الأسر الأخرى، وهذا يعني أن عبد الرحمن تربى في أحضان أسرة عريقة يطمح أفرادها إلى العلوّ والرقيّ ومحبّة السلطة والمركز العظيم، ولا شك أنه تأثر بذلك، وسيكون له نفس الميول والتطلعات عن طريق التبعية للنظام الأموي القائم آنذاك، خاصة وأنه دخل معهم في مصاهرة، حيث تزوج من بنت يزيد بن معاوية. [٨]

الحجاج يوجه عبد الرحمن إلى بلاد الشرق

الدافع الذي اتجه بسببه عبد الرحمن إلى بلاد الترك وموقف رتبيل منه

تكاد تجمع المصادر التاريخية [٩] على أن الحجاج بن يوسف أرسل ابن الأشعث إلى بلاد الترك[١٠] لتأديب ملكها (رتبيل) [١١] الذي كان قد اعترض المسلمين أكثر من مرة في

---

(٧) بيضون، من *دولة عمر*، ٢٧٧.

(٨) اسمها مليكة؛ ابن أعثم، *الفتوح*، ٧: ١٥٧.

(٩) محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الأمم والملوك* (بيروت: دار سويدان، ١٣٨٤هـ)، ٦: ٣٢٦؛ علي بن محمد بن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ)، ٤: ١٩٣؛ إسماعيل بن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ)، ٩: ٣٢؛ عبدالرحمن بن خلدون، *العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت: مؤسسة جمال، ١٣٩٩هـ)، ٣: ٤٧.

(١٠) امتدت أراضي الترك من الصين شرقا إلى بيزنطة غربا؛ وأوسع بلادهم بلاد التغزغز، وهم شعوب كثيرة، والمقصود ببلاد الترك هنا: مملكة رتبيل الرخّج، وبلاد الداور، وسجستان، وهي البلاد السهلية حول بحيرة زره وفي شرقها؛ عبد الله بن خرداذبه، *المسالك والممالك* (ليدن: بريل، ١٨٨٩م)، ٤٠؛ ابن رستة، *الأعلاق النفيسة* (ليدن: بريل، ١٩٨١م)، ٢٩٥؛ ياقوت، معجم *البلدان*، ٢: ٢٣؛ الذهبي، سير *أعلام النبلاء*، ٤: ١٨٤؛ كي لسترنج، *بلدان الخلافة الشرقية* (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ)، ٣٧٢؛ وانظر خارطة رقم (٧) في المرجع نفسه؛ مقال «ترك،» *دائرة المعارف الإسلامية*، ٩: ٢: ٦٨.

(١١) الصواب في رتبيل – زنبيل Zunbil وهو لقب لملوك زابلستان القديمة في جنوب شرق أفغانستان حاليا، وليس اسما لعلم، ونجد ذكر زنبيل في فتوحات يعقوب الصفار في منتصف القرن =

تلك الجهات البعيدة .

فيذكر البلاذري [١٢] أنه أخذ المضايق والشعاب على المسلمين حينما توغلوا في بلاده - سنة ٧٧ هـ / ٦٩٦ م - بقيادة عبد الله بن أمية - الذي كان والده[١٣] قد وجهه إلى سجستان وعقد له عليها - مما اضطرهم إلى مصالحته ، على ألا يغزو بلاده ما دام واليا عليها ، وفي المقابل يفتح الطريق أمامهم ، وأفاد أيضا أنه كرَّرها مرة ثانية مع المسلمين بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة[١٤] - سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨م- وصالحهم على أن يدفعوا له خمسمائة ألف درهم ، وبعد أن حمل عليهم شريح بن هانيء [١٥] قتلوه ، وهلك جماعة من المسلمين معه عطشا وجوعا بعد أن سلكوا طريقا ضيقا ، وحاصرهم العدو فيه ، ثم

= الثالث الهجري ، ولقد بحث في لقب زنبيل وبلاد زابلستان المستشرق الألماني ماركفارت في كتابه *Das Reich Zabul* وأكّد هذا المستشرق أن زنبيل أقرب إلى الصّح من غيرها . انظر : بارتولد ، *تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي*، ط١ (الكويت : د . ن . ، ١٤٠١هـ)، ٣٤١ ، حاشية ٢٥٣ ؛ وانظر كتاب : *The Ghaznavids* لمؤلفه E . C . Bosworth في مواضع مختلفة .

(١٢) أحمد بن يحيى البلاذري ، فتوح *البلدان* (بيروت : دار الكتب العلمة ، ١٤٠٣هـ) ، ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(١٣) هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أبي العاص بن أمية القرشي ، عامل عبد الملك بن مروان على خراسان سنة ٧٨هـ . التفاصيل في : ابن الأثير ، *أسد الغابة*، ١ : ١١٩ ؛ ابن حجر ، *الإصابة* ، ١ : ٢١٤ ؛ خير الدين الزركلي ، *الأعلام*، ط ٧ (بيروت ، ١٩٨٦م)، ٢ : ٢٣ .

(١٤) هو أبو حاتم ، أول من قرأ القرآن بالألحان ، تابعي ثقة من أهل البصرة ، كان أمير سجستان ، وليها سنة (٥٠ - ٥٣هـ/ ٦٧٠ - ٦٧٢م) ثم عزل عنها ووليها مرة أخرى في إمرة الحجاج ، وولي قضاء البصرة ، وهو ابن الصحابي أبي بكرة نفيع بن الحارث ؛ ابن قتيبة ، *المعارف* ، ٥٣٣ ؛ يوسف بن تغري بردي ، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ط١ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ)، ١ : ٢٥٩ ؛ الزركلي ، *الأعلام*، ٤ : ١٩١ ، ١٩٢ .

(١٥) . . . بن يزيد بن نهيك ، ويقال : بن يزيد بن الحارث بن كعب الحارثي المذحجي ، أبو المقدام الكوفي ، أصله من اليمن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يهاجر إلاّ بعده؛ ابن سعد ، *الطبقات الكبرى*، ٤ : ٢٥٦ ؛ ابن عبد البر ، *الاستيعاب* ، ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ؛ المزي ، *تهذيب الكمال*، ١٢ : ٤٥٢ ؛ ابن حجر ، *الإصابة*، ٥ : ١٠٤ .

مات ابن أبي بكرة كمدا لما نالهم. [١٦]

يفهم من ذلك أن الحجاج أرسل ابن الأشعث لتأديب رتبيل، واستعادة هيبة المسلمين وسلطانهم، وإجباره على دفع الخراج الذي منعه. [١٧]

وحين نقرأ رواية أبي مخنف والتي يقول فيها «إن الحجاج لا يوجد بالعراق أبغض إليه من ابن الأشعث،» ويقول أيضا: «ما رأيته قطّ إلاّ أردت قتله.» ثم نقرأ رواية الشعبي، التي يصرّح فيها ابن الأشعث «أنه يحاول إزالة الحجاج عن سلطانه» [١٨] نلمس الجفوة بين الطرفين، لكن هذا لا يعني أنه أرسله مع ذلك الجيش إلى تلك الجهات للانتقام منه، لأن تنصيبه قائدا على ذلك الجيش الذي لا يقلّ عدده عن أربعين ألفا، اختارهم الحجاج مناصفة بين أهل الكوفة والبصرة، [١٩] مع وجود قادة آخرين أكفاء يعتبر دليلا كافيا على عدم وجود تلك الأحقاد والكراهية بينهما على الأقل في هذا الوقت.

وفي المقابل لعل في قبول ابن الأشعث قيادة هذا الجيش مايؤكد عدم وجود تلك الأحقاد التي أشار إليها المؤرخون، من باب مقابلة المعروف بالمعروف، ففيه الدليل الكافي على السمع والطاعة لوالي العراق - الحجاج - مع ما في هذه المغامرة من خطر التوغل في تلك البلاد.

وكان الحجاج يفهم ذلك ويعيه، ولهذا نجده أجاب عمّه - إسماعيل بن الأشعث - حينما أبدى تخوفه عليه وقلقه، بسبب اختياره لابن أخيه قائدا لذلك الجيش، وقال له: «هو لي أهيب، وفيّ أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج من طاعتي.» [٢٠]

ولابد أن رتبيل علم بتحرك المسلمين من أرض العراق بقيادة ابن الأشعث، لكنه لم يكن على علم بعددهم وعدتهم، فقد جُهّزوا أحسن تجهيز حتى أطلق عليهم جيش

---

(١٦) خليفة بن خياط: *تاريخ ابن خياط*، ط ٢ (الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ)، ٢٧٧، ٢٧٩.

(١٧) محمد عزة دروزة، *تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار*، ط ١ (بيروت: دار صادر، ١٣٨١هـ)، ٧: ٢٥٠.

(١٨) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٣٢٧؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٩: ٣٧.

(١٩) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٤: ١٩٣؛ ابن خلدون، *العبر*، ٣: ٤٧.

(٢٠) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٣٢٨؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٤: ١٩٣.

الطواويس لحسن زيّهم، [٢١] فهذه الحملة تختلف عن سابقتها ، فسيقاتل هذه المرة واحدًا ممن عرفوا بالشجاعة والجلد والصبر والذكاء ، وممن لهم باع طويل في القتال .

وحتى يتخلص رتبيل من هذا الموقف الصعب الذي لم يكن يتوقعه ، اتجه به مكره ودهاؤه إلى أن يظهر للمسلمين التودد والخضوع ، فما أن أقبل ذلك الجيش حتى سارع إلى قائده للاعتذار عما بدر منه تجاه الحملات الإسلامية السابقة [٢٢] وطلب منه أن يرضى بالصلح ، مقابل أن يعطيه خراج هذا العام ، فأبى ابن الأشعث، [٢٣] لما يعرفه عنه من الكذب والخديعة .

وأمام رفض ابن الأشعث لجأ رتبيل إلى السياسة التي اتبعها مع الحملات الإسلامية من قبل ، وهي : أن يترك لهم البلاد ، حتى إذا توغلوا فيها ، حاصرهم وضيّق الخناق عليهم ، فيضطروا إلى مصالحته ، حسب شروطه التي من أهمها خروجهم عن بلاده .

لكن ابن الأشعث كان أشدّ دهاء ومكرا منه ، كما كان على حذر شديد في تعامله مع عدوّه ، لما يعلم عنه من سوابق أزعجت المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة ، حتى اضطرهم إلى دفع المال والرهائن ، فضلا عن أنه أحس برائحة غدر وخيانة وراء تلك السياسة المكشوفة ، لذا أقدم على تطبيق ما يأتي :

- حصّن البلاد التي سيطر المسلمون عليها وفي مقدمتها : بست، [٢٤] الرخّج[٢٥]

---

(٢١) ابن خلدون، *العبر*، ٣: ٤٧ ؛ أحمد بن زيني دحلان ، *الفتوحات الإسلامية* (القاهرة : المطبعة الحسينية د.ت)، ١: ١٤٠ .

(٢٢) البلاذري، فتوح *البلدان* ، ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٢٣) ابن خلدون : *العبر*، ٣: ٤٧ ؛ دحلان ، *الفتوحات الإسلامية*، ١: ١٤٠ .

(٢٤) أولى مدن سجستان التي يبلغها نهر قندهار ، وهي أجلّ مدن البلاد الجبلية في شرق سجستان التي تشتمل على الناحيتين الكبيرتين : زمين داور ورخجّ ، وبست من البلاد الحارّه المزاج ، ويقال لناحيتها كرم سير ؛ ياقوت، معجم *البلدان*، ١: ٤١٤ ، ٤١٥ ؛ لسترنج ، *بلدان الخلافة الشرقية* ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ .

(٢٥) اقليم بين بلدي داور وبالش ، ومدينتها بنجواي ، ولها من المدن كهك . . . ، إبراهيم بن محمد الاصطخري ، مسالك الممالك (طبعة ليدن ، ١٩٣٧م) ص ٢٤٤ ؛ ، ابن حوقل النصيبي ، صورة *الأرض* (القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي، د. ت.) ، ٣٥٢ .

ووضع فيها قوات لحمايتها من المسلمين ، ومن أتباع رتبيل .

– الذين خضعوا للمسلمين بحكم الفتح ، ثم ركّز على المناطق الضّيقة حتى لا يؤخذ المسلمون على غرّة، [٢٦] ورأى من المبررات ما يستدعي توقفه عن مواصلة الفتح والتوغل في هذه البلاد لأسباب من أهمها :

– خشي أن يكون رتبيل قد نصب له وللمسلمين كمينا كما صنع مع السابقين .

– وجد أنه لا يستطيع السيطرة الكاملة على كل البلاد التي حواها ؛ لأن معرفته بها وبطرقها قليلة جدا ، فالأمر يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف المسلمون عليها وعلى مسالكها .

– أحس أن الجند – بعد مضي عام كامل – قد تعب ، ومن حقه أن ينال قسطا من الراحه ليتقوى بعدها على مجابهة عدوه مرة أخرى .

– كثرة الغنائم التي حازها المسلمون ، وفيها الأموال والماشية ، وخوفه أن يباغتهم العدو بسببها . [٢٧]

من أجل ذلك رأى ابن الأشعث أن الحكمة تقتضي كما تقتضي المصلحة العامة للمسلمين أن يتوقفوا هذا العام (سنة ٨٠ هـ/ ٦٩٩م) ؛ ليحبطوا خطة رتبيل التي أضحت – كما أسلفنا – مكشوفة ، وتتاح لهم فرصة التفكير في وضع خطة جديدة للسيطرة على ما وراء تلك البلاد « لملاحقة العدو والوصول إلى مساكنهم وذراريهم وإخضاعهم جميعا لدين الإسلام الحق . » [٢٨]

يلاحظ مما سبق أن ابن الأشعث ظلّ على ولائه للحجاج – حتى هذا الوقت ولم يفكر في الخروج عن الطاعة ، فقد أخلص في عمله كقائد لذلك الجيش ، ففتح بست

---

(٢٦) ابن كثير، *البداية والنهاية* ، ٩ : ٣٤ .

(٢٧) الطبري، *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٣٢٩ ، ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ*، ٤ : ١٩٣ .

(٢٨) الطبري، *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٣٢٩ ، ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ*، ٤ : ١٩٣ .

والرخّج . . . وحارب أمم الترك من الغور[٢٩] والخلج[٣٠] . . . ثم حارب رتبيل،[٣١] إلاّ أنه رأى أن دماء المسلمين ستهدر بسبب سياسة رتبيل التي رغب في تنفيذها ، فمن رأيه التوقف والاكتفاء بما في أيديهم هذا العام ، على العكس من الحجاج الذي يرى ضرورة التقدم والتوغل في هذه البلاد .

الجدير بالذكر أن ابن الأشعث تمسك برأيه ليس رغبة منه في الخلاف والخروج عن الطاعة كما أفادت معظم المصادر بذلك،[٣٢] وإنما من أجل حقن دماء المسلمين الذين ينتظرون نفس المصير المأساوي ، الذي مرّ به إخوانهم السابقون بسبب مواصلتهم التقدم في بلاد العدو من غير رويّة وتَدبّر .

أضف إلى ذلك أن ابن الأشعث يعلم أن الحجاج لو كان مكانه لطبق نفس السياسة ، ولأصدر تعليماته للجند بالتوقف عن مواصلة التقدم في أرض العدو ؛ حقنا لدماء المسلمين كيف لا ؟ وهو يعلم تماما أن القادة مسؤولون عن رعيتهم ، وكذلك القضاء على هذا الجيش - أربعين ألفا - أو بعضه خسارة كبيرة للدولة الأموية ، فالحجاج أو ابن الأشعث أو أي قائد آخر قدر وجوده في هذه البلاد يستصوب التوقف .

وكان أمرا طبيعيا أن يرسل ابن الأشعث برأيه هذا إلى الحجاج ، والي العراق .

---

(٢٩) قوم من الترك نزلوا قرب الخلج في نواحي سجستان ، نسبت إليهم غورستان (المدينة) كما نسبت إليهم الدولة الغورية التي امتدت بين ٤٩٣ - ٦٥٨ هـ/ ١٠٩٩ - ١٢٥٩ م؛ لسترنج، *بلدان الخلافة الشرقية* ، ٤٥٩ .

(٣٠) صنف من الترك ، نزلوا في الأرض التي بين الهند وسجستان - في ظهر الغور - وهم أصحاب نعم على خلق الأتراك وزيّهم ولباسهم؛ الاصطخري، *مسالك الممالك*، ٢٤٥ ؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٥٣ .

(٣١) علي بن الحسين المسعودي ، *مروج الذهب ومعادن الجوهر* ، ط١ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ)، ٣ : ١٥٨ ، ١٥٩ ؛ المباركفوري ، *العقد الثمين*، ١٢٠ .

(٣٢) ابن أعثم ، *الفتوح* ، ٧ :١١٧ ؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ٣ :١٥٩ ؛ عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي ، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، ط ١ (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ)، ٦ :٨١ ؛ محمد بن أحمد الذهبي ، *العبر في خبر من غبر*، تحقيق محمد زغلول (بيروت : دار الكتب العلمية، د.ت.)، ١ :٦٦ .

ويذكر ابن كثير [٣٣] وصول كتاب من ابن الأشعث وردت فيه تفاصيل كاملة عن الخطة الجديدة التي يريد انتهاجها ، والأسباب التي دفعته إليها ، وهذا يدل على أن ابن الأشعث مازال مخلصا لواليه ، فلو كانت لديه النيّة - ولو من بعيد - في الخروج عن طاعته لما استشاره في تطبيق تلك السياسة الجديدة التي دفعته إليها الظروف دفعا .

إذا من خلال ما تقدم نستطيع أن نؤكد أن الحجاج وابن الأشعث كانا يسعيان لتحقيق هدف واحد وهو تأديب رتبيل والتوغل في بلاده ونشر الإسلام فيها ، وكان هناك اتفاق بين الرجلين على أن يظلّ ابن الأشعث وجنده في ملاحقة العدو حتى تتم السيطرة عليه ، إلاّ أن الجيش حين غادر العراق ووصل الميدان ، وبذل ما بذل لتحقيق ذلك الهدف - حيث فتح أرضا كبيرة من بلاد العدو [٣٤] - وجد أن الظروف التي تحيط به وبجنده تدعوه إلى تغيير السياسة المتفق عليها ، فالعدو - كما أسلفنا - يتربص به ، ويريد أن يوقعه في متاهات الردى . . . فهو إن اتخذ سياسة مخالفة فقد قطع الأمل على العدو من أن ينال من المسلمين كما نال من إخوانهم السابقين .

كما أنه بهذه الخطة الجديدة يؤكد لرتبيل أن المسلمين تنبهوا لأسلوبه ، ولن يقعوا فيه مرة ثانية . وفضلا عن ذلك كان ابن الأشعث يرى أنه بحكم وجوده في ميدان القتال فقد رأى كل شيء على الطبيعة . . . وأنه لابد من تغيير الخطة ، حتى يتم الوصول إلى الهدف المشترك ، وليس من رأى كمن سمع . وهذا معناه أن الخلاف - بعد الاتفاق - بدأ بين الوالي وقائده .

لكن ياترى هل تفهّم الحجاج وجهة نظر ابن الأشعث ؟

كان الحجاج يرى من موقعه في أرض العراق أن السياسة التي اتفق عليها لابد أن تطبق بحذافيرها للأسباب التالية :

أن الانتظار عاما كاملا يتيح الفرصة لرتبيل أن ينظم صفوفه من جديد ، ويستعين بمدد آخر ليقضي على المسلمين ، فكان يرى أن الاستمرار في ملاحقة العدو وهو في حالة ضعفه . . . قبل أن تندمل جراحه ، أفضل بكثير مما لو كان ذلك بعد عام آخر .

---

(٣٣) ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، ٩ : ٣٤ .

(٣٤) ابن الجوزي ، *المنتظم* ، ٦ : ٢٢٤ .

لكن الحجاج فاته – في المقابل – أن المسلمين أيضا ضعفت قواهم بعد عام من القتال شبه المتواصل ، فمن الحكمة التريث في متابعة العدو لتتاح للمسلمين فرصة مداواة جرحاهم، وليستعيدوا قواهم ، وينظموا صفوفهم من جديد ، ويضعوا خطة عسكرية جديدة تناسب القتال في هذه البلاد ؛ حتى لا يتعرضوا للفشل الذريع كما حدث لمن سبقهم حينما نال العدو منهم نيلا ، كما أن سياسة الانتظار تهيء الفرصة الكافية للمسلمين لتصلهم الإمدادات الجديدة من أرض العراق .

ويجب ألا ننسى أن سياسة التعجّل من قبل الحجاج لم تكن الأولى ، فقد سبقتها محاولة أخرى سنة ٧٧ هـ/ ٦٩٦ م[٣٥] مع قائده المهلب بن أبي صفرة،[٣٦] حينما كان يتابع القضاء على الخوارج في بلاد الشرق ، فقد احتاج الأخير وقتا طويلا للقضاء على فتنتهم الكبيرة ، فوجه إليه الحجاجُ البراءَ بن قبيصة يستعجله في القضاء عليهم ، وحينما شاهد البرّاء الموقف بنفسه ورجع إلى الحجاج، شرح له ما رآه ، فتركه على السياسة التي سار عليها . وما نريد قوله : هو أن الحجاج لو أقدم على هذا التصرف مع ابن الأشعث، وأرسل إليه من يتابع الأخبار، لربما عدل عن رأيه، وإصراره على مواصلة الفتح دون توقف .

وكان الحجاج أيضا يحدوه الأمل في الانتقام من عدوه في فترة لا تتجاوز شهرين ، إن لم تكن شهرا واحدا نظرا لما فعله بالمسلمين .

وكذلك كان الحجاج يطمع في كثرة الفتوح في هذه البلاد ؛ لتنسب إليه ، لأن كل فتح يوضع في ميزانه ، مما يعلي من شأنه لدى البيت الأموي ، لكن يجب أن يوضع في الحسبان الحفاظ على دماء المسلمين .

وربماً فسر الحجاج تصرف ابن الأشعث الأخير خروجا عن طاعته ، وأن الجيش

---

(٣٥) ابن الأثير ، *الكامل*، ٤ : ١٨١ .

(٣٦) أبو صفرة والد المهلب وقيل للمهلب بنت اسمها « صفرة » وبها كان يكنى ، كما يكنى المهلب بأبي سعيد ؛ انظر تفاصيل ترجمته في : ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ٧ : ١٢٩ ؛ ابن قتيبة : *المعارف*، ٣٩٩؛ ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، ٥ : ٣٥٠؛ ٦ : ٢٧٨ ؛ جمال الدين بن نباتة المصري، *سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون* (القاهرة : د. ن. ، ١٣٨٣ هـ)، ١٩٤ ؛ ابن تغري بردي ، *النجوم الزاهرة*، ١ : ٢٦٥ ؛ المباركفوري ، *العقد الثمين* ، ١٠٠ .

بحكم بعده عن العراق وافقه على ذلك . وإذا صحّ هذا التفسير فذلك بسبب ما يعرفه الحجاج عن أهل العراق ، وحبّهم الشديد لمخالفة واليهم إذا كان ضعيفا ، فكيف بهم - ذلك الحين - وقد صار بينهم وبينه تسعمائة ميل على الأقل ، [٣٧] وبناءا عليه بعث إلى ابن الأشعث ثلاثة كتب ، تحمل في طياتها الترغيب والترهيب والوعد والوعيد .

ففي الكتاب الأول اتهمه بأنه رجل يحب الهدنة والموادعة ، ويميل إلى مصالحة العدو ، ويأمره فيه بالمسارعة في التوغل في أرض رتبيل ؛ لهدم الحصون وقتل المقاتلة وسبي الذراري . ويأمره في الثاني بأن يفرض على المسلمين ممن معه بأن يقيموا في تلك البلاد البعيدة ، ويخبرهم أنها بلادهم حتى يفتحها الله عليهم . ويهدده في الثالث أنه إذا لم ينفذ ما يأمره به فسيبعث بأخيه إسحاق بن محمد بدلا عنه قائدا للجيش . [٣٨]

إن فحوى هذه الكتب يؤكد الاختلاف بين الجانبين في وجهات النظر ، فقد رفض الحجاج السياسة التي انتهى إليها قائده ، ورأى ضرورة ملاحقة رتبيل إلى داخل بلاده للقضاء عليه وعلى جيشه ، وتناسى في ظل ذلك أنه ربما يؤدي ذلك إلى ذهاب المئات من المسلمين من جراء هذا التصرف .

ولم يكتف بذلك بل رأى - من مكانه في العراق - أن هناك أسلوبا واحدا يساعد على كسر شوكة العدو ومن يقف إلى جانبه فقد رأى « الإقامة الجبرية للمسلمين في تلك الديار فترة طويلة هو الحلّ الأمثل . » وهذا سيترتب عليه - على حدّ ظنه - قطع الطريق على العدو في أن يفكر في الرجوع إلى الأماكن التي تمت سيطرة المسلمين عليها ، وليتمكنوا من فتح البلاد بأكملها ، ثم يتم رجوعهم بعد ذلك إلى أهليهم وديارهم .

وحتى يدفع الحجاج ابن الأشعث على العمل برأيه وجد أنه لابد وأن يستعمل سياسة الترهيب «ويهدده بالعزل إن لم ينفذ ما يأمره به ، ويولي أخاه إسحاق على الجند ، » [٣٩] وهذا في حدّ ذاته سيكون ثقيلا على نفسه كذلك .

---

(٣٧) بلغت المسافة بين العراق وسجستان حدود ثلاثمائة فرسخ ، والفرسخ كما هو معروف يعادل ثلاثة أميال ؛ انظر توزيع الفراسخ في : ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ٤٣ - ٥٠ .

(٣٨) ابن الجوزي ، *المنتظم* ، ٦ : ٢٢٥ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٤ : ١٩٨ .

(٣٩) الطبري ، *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٣٣٥ .

أصبح ابن الأشعث أمام أمرين أحلاهما مرّ : أن يعمل برأي الحجاج وفي هذا من وجهة نظره خطر على المسلمين ، أو يخالفه في الرأي، وفي هذا خروج عن طاعة قائده .

وخروجا من هذا المأزق لجأ ابن الأشعث إلى الشورى، وأطلع جنده على كتب الحجاج وبيّن لهم أنه واحدٌ منهم يتحرك إذا تحركوا ويقف إذا وقفوا .[٤٠] ونحن نعلم أن الجيش قد وافق تقريبا على سياسة الانتظار إلى العام القابل مع ما فيها من صعوبة شديدة ، حيث البعد عاما آخر عن الأهل والوطن ، لكن حين لمسوا ذلك الإصرار المفاجئ من قبل والي العراق على متابعة العدو مهما كان الثمن بدأت تتجاذبهم قوتان :

الأولى : الرغبة في الطاعة للحجاج ، والتي يترتب عليها طاعة الخليفة ، والتضحية في سبيل الله ، وأنهم لم ينطلقوا إلاّ لأجل ذلك ، يدفعهم إلى تلك الرغبة إيمانهم القوي بالله عز وجل ورسوله .

الثاني : حبّ التخلص من المأزق الكبير الذي فرضه الحجاج عليهم ، يدفعهم إلى ذلك الشوق إلى لقاء الأهل والأحبة ، فقد طال الانقطاع عنهم عاما كاملا ، وهذا يلاحظ من قول المهلب بن أبي صفرة : « وإن لأهل العراق شوقًا عظيمًا ، وصبابة كبيرة إلى أبنائهم ونسائهم . »[٤١]

ومع ما كان يعرفه الجند من خطورة عظيمة في الأمر الثاني – التوقف عن الغزو – حيث يعني ذلك :

- توقف عمليات القتال بعد ما بذلوه من جهود مضنية لفتح تلك البلاد المتعددة .
- إعطاءهم الفرصة لعدوهم رتبيل في أن يعيد تنظيم صفوفه من جديد ، ويعمل على طرد المسلمين من تلك البلاد .
- إن الرفض يعني الخروج عن طاعة الحجاج ، فلابدّ من التفكير في بيعة رجل آخر بالإمارة على أرض العراق .

ومع هذا أصرّوا على الرأي الثاني ، وطلبوا من ابن الأشعث أن يبايعوه خلفا للحجاج ، لكن ماذا كان موقفه من هذا التطور الجديد ؟

---

(٤٠) الطبري ، *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٣٣٥ .

(٤١) الطبري ، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٣٣٩ ؛ ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، ٩ : ٣٨ .

الحقيقة أن هذا القائد الذي أصبح مسؤولا عن الجيش منذ خروجه من العراق رأى أن الظروف التي تحيط به تملي عليه أن يقبل بتلك البيعة ولو مؤقتا ؛ لأن رفضه لها يعني مخالفته للرأي العام ، فلابد إذا أن يسمع لهم ويطيع .

وهنا ننفي ما جاء في هذا الخصوص من اتهام لابن الأشعث ، حيث قيل إنه هو الذي أثار نفوس الجند ضدّ الحجاج عن طريق كتب اختلقها وقال إنها موجهة من والي العراق - الحجاج وأنه يأمره فيها بقتل بعض الجند ، وأن ابن الأشعث لم ينفّذ ذلك وإنما عفا عنهم بعد أن أطلعهم على هذه الكتب .[٤٢]

وجاء الخلع أولا من عامر بن واثلة الكناني ، حيث قال : «اخلعوا الحجاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن بن الأشعث ، فاني أشهدكم أول خالع .»[٤٣]

ويحسن بنا أن نشير إلى سوء الظن الذي حمله الجند في حق الحجاج ، حيث اعتقدوا أنه بسياسته تلك يريد لهم الهلاك والتخلص منهم ، ولقد اتضح ذلك من خلال مقولة أحدهم « إن الحجاج يرى بكم ما رأى القائل الأول : أحمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك وإن نجا فلك .»[٤٤]

كما ظنوا أن الحجاج يريد - على أقل تقدير - أن يُبقيَهم في تلك البلاد البعيدة فترة طويلة وهذا واضح في قول عبد المؤمن بن شبث بن ربعي - أحد أفراد الجند - للناس الذين معه : «إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجمّركم تجمير فرعون الجنود . . . ثم لن تعاينوا الأحبّة ويموت أكثركم فيما أرى .»[٤٥]

ولعل سياسة الحجاج مع أهل العراق هي التي جعلتهم يظنون هذا الظن ، ويندفعون إلى خلعه ، ولم يعلموا أن الحجاج لولا تلك الظروف السياسية والقبلية التي كانت تسود أرض العراق لما كانت سياسته بهذا الشكل . ومع أننا لا ننكر أن تكون إدارته للعراق إدارة عسكرية ، فيها الكثير مما يسمى بالحكم العرفي في وقتنا الحاضر ، لكنه كان في المقابل كريما

---

(٤٢) ابن أعثم، *الفتوح*، ٧: ١١٧ .

(٤٣) الطبري ، *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٣٣٥ ، ٣٣٦ ؛ ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، ٩ : ٣٨ .

(٤٤) ابن الأثير، *الكامل* ، ٤ : ١٩٨ .

(٤٥) الطبري ، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٣٣٦ .

محسنا إلى الرعية فكان - على سبيل المثال - يضع في كل يوم ألف خوان[٤٦] في رمضان، وفي سائر الأيام خمسمائة خوان، على كل خوان عشرة أنفس، وعشرة ألوان من الطعام.[٤٧]

أما في الإحسان إلى الرعية فمنها ما ذكره أعشى بني أبي ربيعة[٤٨] بعد انتهاء حرب الجماجم بانتصار الحجاج، حيث قال: «أصلح الله الأمير . . . . وكفروا وشكرت، وغفرت إذ قدرت فوسعهم عفو الله وعفوك فنجوا، فلولا ذلك لبادوا وهلكوا.»[٤٩]

نخلص مماسبق إلى أن بعد المسافة بين الرجلين هو الذي دفع كلا منهما أن يتمسك برأيه ويرى أنه هو الأفضل من وجهة نظره، فلم تعد الكتب التي تبودلت بينهما تؤدي الغرض المطلوب، ولكن هذا لا يعني أننا نبرئ ساحتهما، فكلاهما يتحمل مسؤولية كبيرة.

فعلما أن ابن الأشعث أصاب في تقديري - حينما أصدر أوامره للمسلمين بعد استشارته لهم - بالتوقف عن التوغل وراء العدو ذلك العام حقنا لدماء كادت أن تهرق، إلاّ أنه ارتكب خطأ فادحا حينما سمع كلام الجند ونفذ ما أشار به عليه من الخروج على الحجاج.

وإذا كان الحجاج أصاب في حرصه على سرعة إنهاء أمر رتبيل لكثرة شروره، فقد أخطأ - بلا شك - في تعجله حينما رغب في مواصلة المطاردة، مما ترتب عليه توسيع شقة الخلاف بينهما.

---

(٤٦) هو الذي يؤكل عليه الطعام، وجمعه أخونة في القليل وفي الكثير خونٌ، محمد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر، ١٣٧٤هـ)، ١٣: ١٤٦؛ محمد مرتضى الزبيدي، *تاج العروس من جواهر القاموس* (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، ٩: ١٩٤.

(٤٧) محمد كرد علي، *الإسلام والحضارة العربية*، ط ٢ (القاهرة: د.ن، ١٩٥٩م)، ٢: ١٦٥، ١٦٦؛ جميل عبد الله المصري، *الموالي وموقف الدولة الأموية منهم*، ط١(عمان: د.ن.، ١٤٠٨هـ)، ٧٦.

(٤٨) هو عبد الله بن خارجة بن حبيب بن قيس، شاعر إسلامي من ساكني الكوفة، التفاصيل في: علي بن الحسين الأصفهاني، *الأغاني*، ط ٢ (١٤١٢هـ)، ١٨: ١٣٦ وما بعدها.

(٤٩) الأصفهاني، *الأغاني*، ١٨: ١٣٩.

دور الموالي في خروج ابن الأشعث

يذهب بعض المؤرخين المحدثين [٥٠] إلى القول بأن ثورة ابن الأشعث كانت مظهرا من مظاهر النزاع بين العنصرين الرئيسيين اللذين كانا يشكلان المجتمع الأموي في ذلك الحين - العرب والموالي - فقد كان العنصر العربي مميزا عن الموالي في العطاء، إضافة إلى اعتبار الموالي في درجة أقل منهم، ثم إنهم فرضوا الجزية على من أسلم من الموالي، مما دفعهم إلى اغتنام أية فرصة تمكنّهم من التعبير عن كراهيتهم للدولة الأموية، ويستدلون على ذلك بأن الموالي كانوا يشكلون قبل ذلك نسبة كبيرة في ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي [٥١] (٦٦ - ٦٧ هـ/ ٦٨٥ - ٦٨٦ م)، ثم أيدوا عبد الرحمن بن الأشعث حين دخل العراق، ووقفوا إلى جانبه حين عزم على حرب الدولة الأموية .

ونرد على هذا الرأي بالآتي:

أولا : لابد أن نعلم أن هناك نسبة من الموالي تأصلت في نفوسهم الكراهية للمسلمين من العرب، ولم تكن للدولة الأموية فحسب، بل لكل عربي مسلم، والسبب الأساسي في ذلك أنهم كانوا ينظرون إليهم على أنهم هم الذين قضوا على امبراطوريتهم التي كانوا يعيشون في ظلها قبل ظهور الإسلام، لذلك استمروا في كيل الحقد ومتابعة الفرص كالثورات وغيرها للتنفيس عن طريقها عن سخطهم، وما يجيش في خواطرهم، علّهم يحققوا مآربهم البعيدة وهي إعادة أمجادهم على أنقاض الدولة الإسلامية العربية،

---

(٥٠) يوليوس فلهاوزن، *تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية*، عرّبه محمد أبو ريدة (القاهرة: د. ن.، ١٩٥٨)، ٢٣٤ وما بعدها .

(٥١) ولد عام الهجرة، وليست له صحبة ولا رواية، كان معدوداً من أهل الفضل والخير يتراءى بذلك ويكتم الفسق، وكان ينادي بطلب دم الحسين بن علي رضي الله عنه، وكان يقال للمختار كيسان وأتباعه الكيسانية من الرافضة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يكون في ثقيف كذاب، فكان هو : كذب على الله تعالى، وادعى أن الوحي يأتيه من الله »؛ عبد القاهر بن طاهر البغدادي، *الفرق بين الفرق* (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١١هـ)، ٣٨؛ ابن عبد البّر، *الإصابة في تمييز الصحابة*، ١٠: ٧٧، ٧٨؛ محمد بن شاكر الكتبي، *فوات الوفيات* (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣م)، ٤: ١٢٣؛ الزركلي، *الأعلام*، ٧: ١٩٢ .

وهذا ما أشار إليه ابن حزم الأندلسي[٥٢] حين قال :

« . . . إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلاله الخطير في أنفسهم ، حتى أنهم كانوا يسمّون أنفسهم الأحرار والأبناء . . . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي المسلمين العرب . . . تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى . »

ثانيا : مع أننا لا نشك بأن نقمة الموالي على العرب كانت موجودة زمن الحجاج وابن الأشعث ، سيما وأن جذور الفتنة التي لعبت دورا فعالا زمن المختار الثقفي لم يقض عليها بالقضاء على المختار ، ثم إن مقتل المختار لم يكن نهاية المطاف في نقمة الموالي ، وأنهم استمروا في رفع راية العصيان كلما سنحت لهم الفرصة ، لكن لا نستطيع القول بأن ثورة ابن الأشعث هي تتمة لثورة المختار ، فهو لم يعتمد في جيشه على الموالي كما كان في ثورة المختار التي كانت تحمل راية المساواة بين عرب وموالٍ جمعهم الإسلام واشترط المساواة بينهم .[٥٣]

ونجد في رواية الطبري على لسان أبي مخنف أن عدد رجال ابن الأشعث كانوا مائة ألف - وهذا لا يخلو من المبالغة - ومعهم مثلهم من مواليهم ،[٥٤] وهذا يفيد أن الموالي المشاركين لهم تابعون لأسيادهم من العرب ، وليس وجودهم بحكم نقمة شخصية على الحجاج .

وكان من عادة العرب أنهم إذا خرجوا إلى قتال أخذوا معهم عبيدهم ومواليهم ، وكانوا هم الفرسان ، وكان عبيدهم ومواليهم من المشاة .[٥٥]

وإذا كنا على يقين أن جيش الطواويس الذي جمعه الحجاج ليوجهه إلى الأتراك فتمرد عليه هو في الأساس جيش عربي عراقي ، وهو الذي أيد ابن الأشعث في ثورته ،

---

(٥٢) علي بن حزم الأندلسي ، *الفصل في الملل والأهواء والنحل* (القاهرة : د . ن . ، ١٣٨٤هـ) ، ٢ : ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٥٣) نبيه عاقل ، *تاريخ خلافة بني أمية* ، ط ٤ (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٣هـ) ، ١٨٠ .

(٥٤) الطبري ، *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٣٤٧ .

(٥٥) أحمد أمين ، *فجر الإسلام* ، ط ١١ (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥م) ، ١٥٥ .

فلا يعقل على حدّ قول بعض المؤرخين[٥٦] أن يجمع الحجاج جيشا من الموالي ليقاتل به الموالي (الأتراك)، كما لا يعقل أن يرفع جيش عربي راية الثورة لرفع الظلم عن الموالي.

ثالثا: لا نجد في الطبري ولا في غيره من المصادر ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن الموالي كانوا سبب ثورة ابن الأشعث، أو أنهم هم الذين أحدثوا الفتنة.

رابعا: فيما يتعلق بموضوع الجزية وفرضها على من أسلم من الموالي، فقد التبس أمرها على كثير من المؤرخين وخاصة المحدثين منهم، فالجزية - كما هو معلوم - تفرض على الرأس . . . بينما يقتصر الخراج على الأرض المفتوحة عنوة . . .[٥٧] ولابد أن هؤلاء - على حدّ ظني - يقصدون بتلك الجزية أحد أمرين:

الأول: ما حدث سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م. عندما ازدادت هجرة الموالي من الفلاحين إلى المدن، فكتب عمال الحجاج إليه: «إن الخراج قد انكسر، وإن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار . . فكتب إلى البصرة وغيرها: «أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها.»[٥٨]

فإن كان هذا هو المقصود فهذا الإجراء الذي أقدم الحجاج على تنفيذه - أي إعادة أهل القرى إلى قراهم - لم يكن مع غير العرب فحسب، بل شمل العرب أنفسهم. ثم إن الحجاج كان يسعى إلى حماية هذه القرى من أن تكون خرابا بسبب هجرة أصحابها منها، أو يقلّ خراجها المأخوذ منها.

ولا ننسى أن محاولة منع الهجرة قد بدأت من عمال الخراج من الدهاقين،[٥٩] وذلك لأمرين:

---

(٥٦) عاقل، *تاريخ خلافة بني أمية*، ١٨١.

(٥٧) انظر تفاصيل ذلك في: علي بن محمد الماوردي، *الأحكام السلطانية والولايات الدينية* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ)، ١٤٢ وما بعدها؛ يحيى آدم، *الخراج* (القاهرة: د.ن.، د.ت.)، ٢١٠؛ محمد الطيب النجار، *الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء*، ط ٣ (القاهرة: دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ)، ١٥٨.

(٥٨) ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٠٠؛ المصري، *الموالي*، ٧١.

(٥٩) جمع دهقان وهو: زعيم فلاحي العجم، الزبيدي، *تاج العروس*، ٩: ٢٠٦.

أحدهما : عجزهم عن تقديم حصصهم في دفع الأموال المقررة إلاّ عن طريق هؤلاء الموالي .

الآخر : لهؤلاء مصلحة سياسية مباشرة في ذلك ، وهي الاحتفاظ بسلطانهم ، وهذا السلطان كان يقوضه انتشار الإسلام .

ويضيف «دانيت»[٦٠] قائلا : «ومن المهم أن نلاحظ أن مقاومة الدخول في الإسلام كان عن طريق الدهاقين ، وغوزك (اخشيد سمرقند) .[٦١]

ثم إن الدولة الأموية في وضع اقتصادي ممتاز ، لم تكن أبدا في يوم من الأيام بحاجة إلى فرض جزية على من أسلم ، لأن ذلك المبلغ الزهيد الذي يفرض على القادرين فقط على حمل السلاح ممن لم يسلموا ، ولا يتجاوز في حدّه الأعلى أربعة دنانير في العام على القادر دون النساء والأطفال والشيوخ والرهبان وغيرهم .[٦٢]

وإن هجرة الفلاحين إلى الأمصار وإن توقفت أيام الحجاج لأمور رأى أن من الضرورة اللجوء إليها ، فهي استمرت بعد ذلك ولم تنقطع ، وسمح بها عمر بن عبدالعزيز ، حتى أنه قال لعامله على البصرة حين شكى إليه خوفه من قلة الخراج بسبب تزايد هجرة الفلاحين : «والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . »[٦٣]

الثاني : ما حدث عام ١٠٠هـ / ٧١٨ م حينما فرضت الجزية على من أسلم من أهل خراسان ، باعتبارهم أعلنوا الإسلام ظاهرا مع إبطان الشرك ، بقصد الهروب من

---

(٦٠) دانيل دينيت ، *الجزية والإسلام* ، ترجمة فوزي فهيم (بيروت : د . ن . ، د . ت .) ، ١٩١ .

(٦١) وهو من ملوك الترك الصغار ، ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، ٤١ .

(٦٢) عبد العزيز اللميلم ، *وضع الموالي في الدولة الأموية* ، ط ١ (الرياض : د . ن . ، ١٤١٠هـ) ، ٤٩ ؛ النجار ، *الدولة الأموية* ، ١٥٨ .

(٦٣) عبد الله بن عبد الحكم ، سيرة *عمر بن عبد العزيز* ، ط ٥ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٣٨٧هـ) ، ٩٣ ، ٩٤ ؛ عبد الرحمن بن الجوزي ، سيرة *ومناقب عمر بن عبدالعزيز* ، ط ١ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤هـ) ، ١٢٠ ؛ أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء* (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩هـ) ، ٢ : ٣٠٩ .

الجزية، فقلّت بسبب ذلك أموال الجزية فعلا، فأمر الخلفاء والولاة بفرضها على الجميع لفترة وجيزة فقط، لأنهم أصبحوا لا يفرقون بين المسلم الحقيقي وغيره، وهذا يتبين من رواية الطبري[٦٤] التي تقول: « . . . وفي سنة ١٠٠ هـ/ ٧١٨ م سارع الناس إلى الإسلام، فقيل للجراح الحكمي[٦٥]: إن الناس قد سارعوا إلى الاسلام . . وإنما ذلك نفورٌ من الجزية . »

والخلافة الأموية بين أمرين: إما أنها لا تصلها أخبار فرض الجزية على من أسلم، وفي هذه الحالة ليس على الخليفة أية مسؤولية عن ذلك، أو أنها تعلم، وفي هذه الحالة لن تسكت. فعندما فكر الحجاج في زيادة الضريبة في العراق وكتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد، ما كان من الخليفة عبد الملك إلاّ أن منعه من ذلك، وكتب إليه: «لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما . »[٦٦]

وها هو الجراح الحكمي يكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ويقول: إن خراسان ليس يكفيهم إلاّ السيف والسوط، فردّ عليه قائلا: بلغني كتابك وتذكر فيه: أن أهل خراسان لا يصلحهم إلاّ السيف والسوط . . . بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام . »[٦٧] فلما لم يمتثل الجراح لأوامره عزله في نهاية الأمر.

أما عن معاملة الدولة الأموية للموالي، فلم يكن فيها شيء مما قاله المغرضون من

---

(٦٤) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٥٥٩ .

(٦٥) الجراح بن عبد الله الحكمي، نسبة إلى الحكم بن سعد العشيرة، دمشقي الأصل والمولد، تولى إمارة خراسان سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م، وعزل عنها سنة ١٠٠ هـ/ ٧١٨ م . قتل سنة ١١٢ هـ ٧٣٠م في بلاد الشرق؛ انظر تفاصيل سيرته في: ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ١: ٣٤٦، ٣٤٧؛ عبد الحي بن العماد، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب* (بيروت: دار الفكر، د. ت.)، ١: ١٤٤؛ محمود شيت خطاب، «الجراح الحكمي،» *مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق*، ٤: ٥٥ (١٩٨٠ م)، ٧٣٢ .

(٦٦) الماوردي، *الأحكام السلطانية*، ١٤٩ .

(٦٧) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤١٥؛ الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٥٦٠ .

المستشرقين، ومن سار على شاكلتهم، فقد أسندت إليهم - في بعض الأحيان - مناصب مهمة في الإدارة والجيش نظرا لمعرفتهم التامة بذلك.

ولقد صرّح المستشرق كريمر[٦٨] بما يدل على ذلك قائلا: « وكانت حالة ملاك الأراضي مثل الدهاقين الفرس حسنة إلى حدّ كبير، فقد أكسبهم ما كان لهم من السيادة أيام حكوماتهم الأولى نفوذا كبيرا على الرعايا من صغار الفلاحين، ومن ثم لم يلبث هؤلاء أن أسندت إليهم المناصب الإدارية العامة وجباية أموال الدولة. »

وإننا لنجد منهم القادة والفقهاء والكتاب، كما نجد المقربين عند الخلفاء الأمويين من أمثال: سالم (مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه)،[٦٩] وعبدالحميد (مولى مروان ابن محمد، وكاتبه ووزيره)[٧٠] بل ونجد منهم الأئمة المرموقين كأبي حنيفة النعمان.

ونفس الشيء بالنسبة للولاة والقادة من أمثال: أبي المهاجر دينار (مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري) الذي أصبح يوما من الأيام رئيسا على عقبة بن نافع - مؤسس القيروان - وطارق بن زياد (مولى موسى بن نصير وفاتح الأندلس)[٧١] وعبيد الله بن الحبحاب[٧٢] (مولى بني سلول و والي خراج مصر والوالي على إفريقية).[٧٣]

---

(٦٨) فون كريمر، *الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية*، ترجمة طه بدر (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.)، ٧٨.

(٦٩) محمد بن عبدوس الجهشياري، *الوزراء والكتاب*، ط ١ (القاهرة: مكتبة المشهد الحسيني، ١٣٥٧هـ)، ٣٩.

(٧٠) مولى العلاء بن وهب العامري بن عامر بن لؤي؛ التفاصيل في: الجهشياري، *الوزراء والكتاب*، ٤٥ - ٤٧، ٥١ - ٥٤؛ محمد يوسف الكندي، *الولاة وكتاب القضاة* (القاهرة: دار الفكر، د.ت.)، ٦٠.

(٧١) ويقال مولى الصدف. جاز البحر من الزقاق السبتي إلى الأندلس، فنزل في الجبل المنسوب إليه في رجب سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠م في اثني عشر ألفا من البربر والعرب المسلمين؛ محمد بن أحمد الذهبي، *تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام* (القاهرة: د.ن.، ١٣٦٨ هـ)، ٤: ١٥.

(٧٢) بنى جامع الزيتونة ودار الصناعة بتونس، وكان في أول أمره كاتبا، ثم تناهى حاله إلى ولاية مصر وإفريقية والأندلس؛ الكندي، *الولاة*، ٧٣، ٧٦، ٣٤١، ٣٤٢؛ أحمد بن أبي الضياف، *إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان* (تونس: د.ن.، ١٩٦٣م)، ٩٠.

(٧٣) اللميلم، *وضع الموالي*، ١٣٣ وما بعدها.

يتضح مما تقدم أن الموالي كانوا يشكلون في جيش ابن الأشعث - بالنسبة للمسلمين العرب - فئة قليلة، وليس كما أفاد الطبري من أنهم بلغوا مائة ألف، [٧٤] ومما يبرهن على ذلك أنه بينما يقتل من المسلمين العرب - أثناء اللقاء مع الحجاج - ألف أو ألفان، يقتل في المقابل من الموالي مائة أو مائتان. [٧٥]

وهم مع ذلك لم يرفعوا لواء العصيان والخروج عن الطاعة، إلاّ بعد ما رأوا أسيادهم - من العرب - أقدموا على ذلك، وهذا يفيد أن وجودهم مع الجيش بحكم التبعية لا بحكم نقمة شخصية على الحجاج، وإن رفض أحد الموالي (أبو البختري الطائي) الإمارة على المسلمين العرب حين طلبوا منه ذلك، [٧٦] لدليل قاطع على أن الموالي كانوا يتبعون أسيادهم العرب، ويقدرونهم كل التقدير، ويكرهون التَّأمُّر عليهم، وهذا - على ما أرى - يترجم حسن معاملة المسلمين من العرب للموالي، وأنها تقوم على المساواة أولا وأخيرا، ولا غرابة في ذلك فقد حثّ ديننا الحنيف على ذلك من خلال الآية الكريمة ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴿١٣﴾ ﴾. [٧٧] فللموالي ما للمسلمين العرب من حقوق وواجبات، وعليهم ما عليهم. وبهذا يمكن دحض شبهة المغرضين من المستشرقين ومن نهج نهجهم، والتي كانوا يرمون من خلالها تشويه صورة الدولة الإسلامية.

ماضي المجتمع العراقي وأثره

وإذا تأملنا في أرض العراق وجدناها اتخذت منذ وقت مبكر موقعا جاذبا للأفكار الجديدة للحركات الثورية والإصلاحية، فقديما عاشت في العراق عناصر عربية تأثرت برغم تبعيتها السياسية للفرس بالثقافتين الإغريقية والبيزنطية، فضلا عن العقيدة المسيحية، وأقامت إلى جوارها عناصر أخرى سواء من الفرس (وهم أغلبية السكان في المنطقة) أو

---

(٧٤) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦:٣٤٧.

(٧٥) ابن خياط، *تاريخ ابن خياط*، ٢٨٦؛ ابن أعثم: *الفتوح*، ٧:١٤٦.

(٧٦) ابن خياط، *تاريخ ابن خياط*، ٢٨٢.

(٧٧) سورة الحجرات، آية ١٣.

من الجاليات الأخرى من يهود ونصارى من أصحاب المذهب النسطوري، لاسيما هؤلاء الذين كان لهم دور كبير في مجرى التعايش الحضاري المختمر في تلك الأرض منذ مئات السنين .

ويقول إبراهيم بيضون [٧٨]: «لقد أدى هذا التمازج بين مختلف الأفكار إلى نوع من الانصهار الثقافي، مما أوجد في النهاية مناخا مميزا من حيث الحدّ الأدنى للحرية الفردية أو من حيث الغليان الفكري الذي أصبح مع الوقت أبرز سمات المنطقة .

وربما كان ذلك صحيحا قبل وصول الإسلام إليها، لكن حينما نعود إلى وضع العراق بعد ذلك نجد الأمر قد تغيرا تغيرجذريا، فلم يعد لهذا الأمر أي أثر يذكر، فقد أدب الإسلام تلك النفوس وربّاها وهذّبها، وخلق نفوسا صافية نقيّة من الشوائب بعيدة عن تلك الأفكار الثورية؛ أما ما حدث فيها من ثورات بعد ظهور الإسلام، فأسبابه واضحة جدا لا تخفى على اللبيب .

وإذا قلنا بوجود هذه الرواسب القديمة في النفوس، فما الذي يدفع ابن الأشعث - مثلا - إلى أن يضحّي بنفسه ويتجه إلى بلاد بعيدة كهذه، أما كان الأولى حينما كانت لديه نزعة ثورية أن يعلنها في حينها - بعد رفضه قيادة ذلك الجيش - خاصة وأن المؤيدين له في أرض الكوفة وخارجها عددهم كثير جدا؟

الذي يظهر لنا أن خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية هو حدث عارض، لا علاقة له بالماضي! لأن الظروف التي حدثت في الشرق هي التي هيّأت أسباب الخروج .

العصبية العراقية وأثرها

يظهر أن أهل العراق وخاصة أشرافهم ورجال أرستقراطيتهم العظام كرهوا الخضوع لرجل من ثقيف (الحجاج بن يوسف) جاءهم أميرا على العراق، ليستبد بهم وليفضل أهل الشام عليهم، لقد كانت لقريش بينهم حرمة قديمة سبقت الإسلام، ثم جاء الإسلام ليثبتها ويرفع من شأن قريش . أما ثقيف فلم يكن لها مثل هذا الشرف، ويؤيد هذا الزعم

---

(٧٨) بيضون، من *دولة عمر*، ٢٨٤ .

ما ورد في كتاب *الأغاني*[٧٩] : «ولما خرج ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف حشد معه أهل الكوفة، فلم يبق من وجوههم وقرائهم أحد له نباهة إلا خرج معه لثقل وطأة الحجاج عليهم .»

وهذا يفيد أن ثورة ابن الأشعث لون من مظاهر النزاع بين العراق والشام، هذا النزاع الذي بدأ منذ زمن علي ومعاوية، حتى قال رجل من أهل العراق : « لأن أموت مع أهل العراق أحبّ إلي من أن أعيش مع أهل الشام . »[٨٠]

لقد دفعت سياسة الحجاج أهل العراق إلى أن يجتمعوا في جبهة واحدة، جمعتهم المصلحة والعصبية حتى قيل : «حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم، ياأهل خراسان انسبوني تجدوني عراقي الأم، عراقي الأب، عراقي المولد، عراقي الهوى والرأي والدين . »[٨١]

وفي المقابل كان أهل الشام عصبية واحدة، تجمع بينهم مصلحة قبلية وسياسية واقتصادية .[٨٢]

إذا من الممكن أن تكون العصبية العراقية أحدثت أثرا عظيما في نفوس أهلها، مما جعلهم يترقبون الفرصة المناسبة كي يعبروا عنها، ولم يجدوا أفضل من هذا الوقت الذي جمع فيه الحجاج أربعين ألفا منهم، ثم جعل عليهم رجلا من أهل الكوفة .

موقف الدولة الأموية من خروج ابن الأشعث

بين المهلب بن أبي صفرة وابن الأشعث

كان المهلب بن أبي صفرة يرى موقعه إلى جانب السلطة ، ومن هذه الرؤية رأى عدم الاحتكاك بابن الأشعث الذي أعلن الخروج عن الطاعة في ظل الظروف التي تحيط

(٧٩) الأصفهاني، *الأغاني*، ٦ : ٥٤ .

(٨٠) الطبري ، *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٥١٠ .

(٨١) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٥١٠ .

(٨٢) عاقل، *تاريخ خلافة بني أمية* ، ١٨٢ .

به . ولما كان المهلب يعلم أن هذا القائد قد انطلق بالجيش إلى الشرق لأجل رفع كلمة الله والجهاد في سبيله ، لذا رأى أنه من الواجب عليه أن يوجه إليه النصيحة في البداية - يحثه على الدخول في الطاعة - ويتراجع عما كان قد عقد العزم عليه .

وقد بعث إليه بكتاب يبين له فيه مدى خطورة ما سيقوم به من تصرف ، ويوصيه بالمحافظة على دماء المسلمين الذين معه كما نهاه عن مفارقة الجماعة أو حتى التفكير في نقض البيعة لخليفة المسلمين . (٨٣)

ولكن ما هو موقف ابن الأشعث من ذلك ؟ الحقيقة أننا لم نجد فيما اطلعنا عليه أن ابن الأشعث ردّ بجواب على المهلب ، إلاّ أنه من المحتمل أن يكون قد بعث إليه بموقفه الصريح من ذلك ولو مشافهة ، وهذا سيتضح من كتاب المهلب إلى الحجاج .

دور المهلب مع الحجاج

لما كان المهلب حريصا - كأي مسلم - على منع تلاقي سيوف المسلمين بعضها مع بعض ، حيث بدأت بوادر هذه الفتنة تلوح في الأفق ، لذا بادر إلى محاولة الاتصال بالحجاج مبديا رأيه في هذا الخلاف ، فطلب منه في كتاب بعث به إليه : ألا يتعجل قتال جند العراق الذين مع ابن الأشعث ، وأن يتركهم حتى يتبدد حماسهم بلقائهم بأهليهم ، وعندها سيغيرون من رأيهم . . ويتراجعون عن فكرة القتال من تلقاء أنفسهم ، وبهذا التصرف يقضي على الفتنة قبل استفحال خطرها .

ثم قرن ذلك الكتاب بتحذير الحجاج قائلا له : إنهم قادمون إليك وهم مثل السيل المنحدر من الجبل ، وليس يردّه شيء حتى ينتهي إلى قراره . (٨٤)

يستنتج من ذلك أن المهلب - بهذه المشورة - قد فهم سبب التفاف جند العراق حول ابن الأشعث ، وخلع الحجاج ، وهو محاولة الرجوع السريع إلى العراق ، كما أكد على

---

(٨٣) الطبري ، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٣٣٨ ؛ ابن الأثير ، *الكامل*، ٤ : ١٩٨ ؛ ابن كثير ، *البداية والنهاية*، ٩ : ٣٨ .

(٨٤) الطبري ، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٣٣٩ ؛ ابن الأثير ، *الكامل*، ٤ : ٢٠٠ ؛ ابن كثير ، *البداية والنهاية*، ٩ : ٣٨ .

أن الهدف من تحرك الجند السريع هو اللقاء بالأهل فقط، ولا علاقة له بقتال الحجاج، مما دفع المهلب إلى سرعة مكاتبة الحجاج والإفصاح عن حقائق لم يكن قد اطلع عليها، إلاّ أن الحجاج لم يعمل بنصيحة قائده المهلب، وفضّل التصدي لهم بنفسه قبل أن يصلوا إلى العراق، وهذا يعني أن محاولات المهلب مع ابن الأشعث والحجاج باءت بالفشل.

موقف الخليفة عبد الملك بن مروان من خروج ابن الأشعث

لا شك أن الخليفة عبد الملك بن مروان كان حريصا على سلامة أرواح الجند من الجانبين العراقي والشامي - فكلاهما مسلم، لذا عندما بلغته أخبار تحركات ابن الأشعث مع الجند - عن طريق واليه على العراق - اغتم غما شديدا وكان لا ينام بعدها من غلبة التفكير، (٨٥) وحين استشار أحد المقربين إليه (٨٦) هوّن عليه الأمر وطمأنه قائلا: «لا تخف ياأمير المؤمنين ما لم يأتك الأمر من قعر مرو.» (٨٧)

وفي محاولة منه لتدارك الموقف على أهل العراق عرض عليهم عدة أمور:

١ - عزل الحجاج بن يوسف عن ولاية العراق؛ لأنه ربما تكون شدّته معهم هي أحد الأسباب في التفافهم حول ابن الأشعث.

٢ - أن تجري عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام.

٣ - أن يعطي عبد الرحمن بن الأشعث الولاية على أي جهة في بلاد العراق، ويبقى عليها ما دام حيّا. (٨٨)

إن الناظر لهذه العروض يدرك بجلاء أن الخليفة كان على بيّنة مما يدور في أرض العراق من سياسة الحجاج التي كانت تقوم في الأساس على الشدة والغلظة من أجل إخضاع الخارجين عليه، ولكنه أبقاه لما عرف عن سكانها من أنهم إذا ولي عليهم رجل ضعيف

---

(٨٥) الطبري، تاريخ الأمم، ٦: ٣٣٩؛ ابن أعثم، *الفتوح*، ٧: ١٢٨؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٩: ٣٩.

(٨٦) هو خالد بن يزيد بن معاوية؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٠٠.

(٨٧) ابن أعثم، *الفتوح*، ٧: ١٢٨.

(٨٨) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٣٤٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٠٤.

خرجوا عن طاعته، وإن كان العكس خضعوا له وأطاعوه، لذلك كان الخليفة مطمئنا إلى تلك السياسة مع علمه بوجود تذمر من معظم فئات الشعب.

وعن الأعطيات التي ربما حُرم منها أهل العراق في حين أعطيها أهل الشام فهي قضية أخرى، فلم يكن القصد التمييز بين العرب (سكان أهل الشام) والموالي (غالبية سكان العراق)، ولا بين العرب والعرب أنفسهم، وإنما هي مقاييس وضعت لتسيير دفة الدولة الإسلامية، وتأدية مهمتها الأساسية، وهي تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الداخل، وحمل الدعوة إلى الخارج، فالعرب كانوا في ذلك الوقت حملة رسالة الدين الإسلامي، وقام على أكتافهم بناء الدولة لأن أكثر الصحابة عرب، [٨٩] ومن ثم تطلب الأمر تفضيلهم في العطاء على جماعة الموالي.

ثم إن العرب نظرا لتفرغهم للشؤون الحربية والفتوح الإسلامية تركوا للموالي الناحية الاقتصادية، حتى صاروا القابضين على عصب الصناعة والتجارة في شتى المدن وخاصة في البصرة والكوفة. [٩٠] وحين انضم الموالي إلى إخوانهم العرب في الجندية [٩١] شملهم من قبل الدولة الأموية العطاء كغيرهم باعتبارهم جندا يقاتلون في سبيل الله وينشرون الدعوة مع العرب المسلمين.

---

(٨٩) أمين، *فجر الإسلام*، ١٥٢.

(٩٠) اللميلم، *وضع الموالي*، ١٤٧، ١٤٨.

(٩١) انضم من أهل بخارى إلى العرب ما بين عشرة آلاف جندي إلى عشرين ألفا، كما انضم اثنا عشر ألفا من جند البربر إلى العرب ليحاربوا في جانب حسان الغساني؛ محمد بن جعفر النرشخي، *تاريخ بخارى*، تعريب أمين عبد المجيد وتحقيقه (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٥هـ)، ٨٠؛ عبد الله المالكي، *رياض النفوس*، ط ١ (تونس: د.ن.، ١٣٧٠هـ)، ١: ٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٤: ١٣٦؛ محمد بن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (ليدن: بريل، ١٩٤٨م)، ١: ٣٨؛ عبد الرحمن بن محمد الدبّاغ، *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان*، ط ٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٨م)، ١: ٦٧؛ الحسين بن محمد الورثيلاني، *الرحلة الورثيلانية*، ط ٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٤هـ)، ١٠٤؛ حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*، ط ٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م)، ١: ٣٠١؛ سيدة كاشف، *أعلام العرب* (القاهرة: د.ن.، ١٣٨٢هـ)، ١٧: ١١٩.

وقد أكدّ الخليفة عبد الملك بن مروان على عروضه رغم المحاولات التي قام بها الحجاج، والتي كان الهدف منها : الإبقاء عليه واليا على العراق، فقد حذّر الخليفة من عاقبة تنصيب ابن الأشعث واليا على العراق، وأوضح له أنه إذا تم ذلك فسيتحرك ابن الأشعث مع أهل العراق إلى الخليفة ويقتلونه، إلاّ أن حرص الخليفه على دماء المسلمين من الطرفين كان أعظم عنده من ولاية الحجاج أو إرضائه، ولعل هذا يوحي من بعيد أن الخليفة عبد الملك كان يقصد بعرضه الأخير (تنصيب ابن الأشعث واليا على أرض العراق) تسكين الفتنة مؤقتا، خاصة حين رأى أن الأمور تطورت، وتحول أهل العراق إلى تيار من الغضب والسخط، ثم بعد هدوء العراق يعمل على خلعه والتخلص منه بأية طريقة وهذا ما سيحدث بالفعل.

لكن يظهر أن هذه الحلول جاءت متأخرة، إذ أن الجيش قد تحرك من أجل تحقيق أهدافه، والجدير بالذكر أن الرجلين (عبد الله بن عبد الملك بن مروان،[٩٢] ومحمد بن مروان[٩٣]) المكلفين بالتبليغ قاما بواجبيهما نحو الخليفة، فاجتمعا بأهل العراق سنة ٨٢هـ / ٧٠١م وهم في دير الجماجم [٩٤] وبلغا عروض الخليفة، إلاّ أن أهل العراق فسرّوها على أنها مرحلة ضعف تمرّبها الدولة الأموية، ويجب أن يستغلوها، وهذا يفهم من قولهم «إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلّة والذلّة، ونحن ذوو العدد الكثير.»[٩٥] وهذا يعني أنهم أصرّوا على موقفهم ولم يتراجعوا عنه.

---

(٩٢) يكنى أبو عمر، ويعتبر أول من حول الدواوين بمصر إلى العربية - وكانت تكتب قبل ذلك بالقبطية - ولي مصر في أيام أبيه (٨٦هـ/ ٧٠٥م) وأقره أخوه الوليد بعد وفاة أبيهما، وابتنى مسجدا في مصر عرف بمسجد عبد الله؛ التفاصيل في: الكندي، *الولاة*، ٥٨، ٥٩؛ الزركلي؛ *الأعلام*، ٤: ١٠٠.

(٩٣) ... ابن الحكم الأموي، أمير من الشجعان الأبطال، كان والي الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وله وقائع وحروب مع الروم؛ التفاصيل في: البلاذري، *فتوح البلدان*، ٢٠٧؛ الزركلي؛ *الأعلام*، ٧: ٩٥.

(٩٤) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٣٤٨؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٩: ٤٤.

(٩٥) ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٠٤.

الصدام المسلح في جهات مختلفة

مما تقدم يتبين أن الحجاج عقد النية على اللقاء المباشر بابن الأشعث ومن معه، وهذا واضح من مخالفته لرأي المهلب . ثم اتجاهه إلى البصرة، واستعداده للقتال، ثم مسيره إلى تستر[٩٦] في فترة لا تتجاوز شهرين، كل هذا من أجل إجهاض ثورة ابن الأشعث قبل استفحال خطرها بانضمام الناقمين من أهل البصرة والكوفة فيصعب عندئذ مواجهتهم جميعا .

ومما لا شك فيه أن حماس أصحاب الحجاج من أهل الشام كان ضعيفا، وربما كان ذلك لقلة أعدادهم،[٩٧] ثم إن خروجهم كان بغير هوى منهم، مما كان سببا في هزيمتهم عند أول لقاء في أرض تستر سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠م من يوم الأضحى،[٩٨] أضف إلى ذلك أنه لم يكن لديهم ما يدفعهم إلى مواصلة القتال! فلا مال ولا طعام،[٩٩] مما دفع بالحجاج إلى أن يختار لجنده مكانا آخر يصلح فيه اللقاء، حيث قرر التراجع إلى البصرة .

ولما كانت النقمة على الحجاج عامة، بايع ابن الأشعث عند وصوله البصرة أهلها حتى القرّاء - وهم خمسمائة[١٠٠] - وكبار السن،[١٠١] لكن لم يصل عددهم - في كل الأحوال - إلى أكثر من ستين ألفا، لأن من قدم بهم ابن الأشعث لا يزيدون على خمسة وثلاثين ألفا، هذا على اعتبار أن خمسة آلاف ذهبوا في اللقاء مع الترك، وانضم إليهم من

---

(٩٦) أعظم مدينة بخوزستان اليوم وهي تعريب شوشتر، ومعناه التفضيل في الطيب والنزهة. وقيل إنها على شكل فرس، وبها نهر كبير يسمى تستر . عبد المؤمن بن عبد الحق، *مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع*، ط ١ (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٤هـ)، ١ : ٢٦٢ .

(٩٧) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٣٣٩ .

(٩٨) الذهبي، *العبر في خبر من غبر*، ١ : ٦٨ .

(٩٩) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٦ : ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(١٠٠) ذكرهم ابن خياط تحت عنوان «تسمية القراء الذين خرجوا مع ابن الأشعث،» *تاريخ ابن خياط*، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(١٠١) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢٢ : ٢٦١ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ٢٠٠ ؛ محمد زنيبر، *الإسلام منذ الانطلاقة الأولى إلى نهاية الدولة الأموية* (الرباط : د.ن.، ١٣٩٣هـ)، ١٠٦ .

أهل البصرة - كما أسلفنا - حوالي خمسة وعشرين ألفا، فيكون العدد في حدود ستين ألفا فقط، وهذا حقق انتصارا كبيرا لابن الأشعث على الحجاج في اللقاء الآخر الذي تم في أرض الزاوية،(١٠٢) حيث وقفت القوات الشامية المؤلفة من قريش وثقيف عاجزة - لقله عددها - عن تحقيق أية نتيجة تذكر لصالحها، مما دفع بالميمنة والميسرة إلى النكوص أثناء المواجهة.(١٠٣)

لقاء دير الجماجم(١٠٤)

دفع النجاح السابق ابن الأشعث إلى التقدم ناحية الكوفة لإدخالها في طاعته، ولم يكن مستغربا أن يرحّب به أهلها عندما جاز قنطرة زبارا، فقد كانوا يشاركون البصريين نقمتهم على الحجاج، نظرا لتعسفه ولكون ابن الأشعث تربى في أحضانهم، فانضمت إليه همدان وتخلف عنه طائفة يسيرة من تميم قاتلوا إلى جانب مطر بن ناجية وهذا راجع إلى أنهم كانوا يرون أن في ذلك مخالفة صريحة للخلافة الأموية مازالت قائمة في أرض الشام.(١٠٥)

لكن مهما يكن الأمر فقداجتمع لابن الأشعث - إجمالا - مالا يقل عن مائة ألف مقاتل، أصبحوا في طوعه وتحت إرادته، وكانوا ينتظرون الفرصة المناسبة التي يجدون فيها من يرفع لواء المعارضة ضدّ الحجاج الثقفي، فالأسلوب القمعي الذي كان يتخذه الحجاج مع العراقيين جعل النفوس تنفر منه وتبتعد عن قبول حكمه، ليس ذلك فحسب بل دفعهم إلى أن يلتفتوا يمنة ويسرة باحثين عن وال آخر يخلصهم منه، ولعل ذلك وعاه الخليفة عبد الملك بن مروان ، فعرض على أهل البصًرة ما سبق وأوضحناه.

في الوقت الذي كان عبد الملك بن مروان يحرص فيه على دماء المسلمين باعتباره

---

(١٠٢) موضع قرب البصرة ؛ التفاصيل في : ياقوت ، معجم *البلدان*، ٣ : ١٢٨ .

(١٠٣) الطبري ، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٣٤٢ .

(١٠٤) تقع على سبعة فراسخ من الكوفة، سميت بذلك نسبة إلى كثرة الجماجم ، ويقصد بها الآبار ومفردها جمجمة ؛ ياقوت ، معجم *البلدان*، ٢ : ٥٠٤ .

(١٠٥) الطبري : *تاريخ الأمم* ، ٦ : ٣٤٦ .

خليفة، كان - أيضا - حريصا على خلافته، فقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد، فالخليفة هو صاحب الأمر الذي لا يردّ، ولا خلاف عليه، فإن خالف أحد من الناس فالسيف على رقبته.(١٠٦) ومن هذا المنطلق ضاعف جهده في تطويق الفتنة التي ضمت معظم الطوائف القبلية، حيث شكلت - كما أسلفنا - تيارا غاضبا يوشك أن يقذف بخطره على العراق، ثم يتجه إلى أرض الشام وربما يترتب على هذا سقوط الخلافة نفسها، حيث يتولى الأمر بعد ذلك أصحاب الثورات والحركات الانفصالية.

وتشاور ابن الأشعث مع رجاله فيما عرضه عليهم عبد الملك بن مروان من عزل الحجاج بن يوسف عن ولاية العراق، ثم تجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام، ويعطى عبد الرحمن بن الأشعث الولاية على أي جهة من بلاد العراق.(١٠٧)

ومن المؤسف جدا أن يرفض هؤلاء - الجند - تلك العروض؛ اعتقادا منهم أن الأمر قد انتهى، وأن النصر قاب قوسين أو أدنى لهم وهذا يعني أنه لابد من الصدام مرة أخرى بين الطرفين في دير الجماجم، وكان أهل الشام في هذا الوقت، قد اضطربت الأمور عليهم حيث غلت الأسعار وقلّ عندهم الطعام وفقدوا اللحم، فأصبحوا وكأنهم في حصار شديد؛ أما أهل العراق فكانت تأتيهم موادهم من الكوفة ومن سوادها ومن إخوانهم من البصرة.(١٠٨)

وكان اللقاء بين الجانبين في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول سنة (٨٣ هـ/ ٧٠٢م). واستمرت الحرب مائة يوم، هزم بعدها جنود الشام في منتصف جمادى الآخرة، وكسب ابن الأشعث جولة مهمة.(١٠٩)

---

(١٠٦) يوسف العش، *الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها*، ط ٢ (دمشق، ١٤٠٦هـ)، ٢٢٨، ٢٢٩.

(١٠٧) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٣٤٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٠٤.

(١٠٨) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٣٥٠.

(١٠٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٠٥.

لقاء مسكن

كان الصدام بين الجانبين في موقعة مسكن على دجيل، وقد تلقى فيها ابن الأشعث الهزيمة لتفرق الناس عنه عدا جماعة كانت معه على رأسها محمد بن سعد بن أبي وقاص، حتى أنه حينما نزل كرمان - بعد ذلك - قال له شيخ من عبد القيس يقال له معقل : «والله لقد بلغنا عنك يابن الأشعث أنك جبانٌ، فردّ عليه ابن الأشعث : والله ما جبنت، والله لقد دلفت الرجال بالرجال ولفقت الخيل بالخيل، ولقد قاتلت فارسا وقاتلت راجلا وما انهزمت، ولا تركت العرصة للقوم في موطن حتى لا أجد مقاتلا، ولا أرى معي مقاتلا.»[١١٠]

وأحدثت هزيمة ابن الأشعث أثرا عظيما في نفسه، حيث فكرّ بعدها في العودة إلى جهة الشرق خوفا من غضب الخلافة الأموية عليه، ويظهر أن الحجاج قد أصدر توجيهاته بإنزال العقوبة الشديدة لمن بقي تحت طاعة ابن الأشعث، ويؤكد ذلك أن عامل أرض زرنج[١١١] (عبد الله بن عامر البعار) - الذي كان قد استعمله ابن الأشعث عليها - أغلق باب مدينته دونه ومنعه من دخولها، كما أراد آخرون أن يتقربوا للحجاج ويأخذوا عنده مكانا، وفي مقدمتهم عامل مدينة بست[١١٢] (عياض بن هميان) الذي فتح باب مدينته لابن الأشعث وأصحابه، ثم استغل فرصة غفلة رجاله حين تفرقوا عنه، ووثب عليه وأوثقه وأراد أن يأمن به عند الحجاج،[١١٣] لكنه أطلق سراحه خوفا من تهديد رتبيل، الذي دخل في المنافسة أيضا على هذا القائد - ابن الأشعث - وأراد هو الآخر أن يتقرب بواسطته إلى

---

(١١٠) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦ : ٣٦٨ .

(١١١) قاعدة إقليم سجستان في العصور الوسطى. وخفي اسمها اليوم وكانت بالقرب من نهر سناروذ؛ انظر التفصيل في : ابن حوقل : *صورة الأرض*، ٣٤٩ ؛ لسترنج، *بلدان الخلافة الشرقية*، ٣٧٣ وما بعدها .

(١١٢) تقع على نهر هيلمند عند ملتقى النهر الآتي من ناحية قندهار، وكانت ثانية المدن الجليلة في سجستان، وهي كثيرة الأنهار والبساتين؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ١ : ٤١٤ وما بعدها؛ لسترنج، *بلدان الخلافة الشرقية*، ٣٨٣ وما بعدها .

(١١٣) أحمد بن إسحاق اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت : دار بيروت، ١٣٧٩هـ)، ٢ : ٢٧٨ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤ : ٢١٤ .

الحجاج، فلجأ إلى سياسة التحايل وهدّد عامل بست بقتله وقتل جميع من معه إن أصاب ابن الأشعث بسوء.(١١٤)

نهاية ابن الأشعث

وبعد أن ضاقت على ابن الأشعث الأرض بما رحبت، ووجد أن الأمور التي تحيط به تسير ضدّه، فعماله الذين عيّنهم على المدن تنكروا له، وعدوه رتبيل أصبح صديقا، ومخلصا له من عامل بست، الذي أراد تقديمه إلى الحجاج بن يوسف، عند ذلك اضطر ابن الأشعث أن يقبل بجوار ذلك العدو؛ لكونه أقلّ الموجودين خطرا حسب ما ظهر له، لكنه في الباطن كان يعمل لنهايته ويسعى للإيقاع به، وقد حذر البعض ابن الأشعث من مغبة ذلك الأمر، وعلى رأسهم علقمة بن عمرو، حيث أبدى تخوّفه عليه من رتبيل، إلاّ أنه لم يسمع له.(١١٥)

وجاءت الفرصة التي كان ينتظرها رتبيل، وهي أن يساوم الحجاج على ابن الأشعث، فما أن وصله تهديد الحجاج بوجوب تسليم ابن الأشعث إليه؛ وإلاّ سيبعث من يقاتله - مليون مقاتل من المسلمين - حتى وافق على تسليمه نظير أن يرفع الخراج عن بلاده مدة سبع سنوات(١١٦) وبعد أن سمع ابن الأشعث بتلك المساومة المشينة ألقى بنفسه من فوق أحد قصور الرّخج الذي جعله رتبيل مسجونا فيه،(١١٧) إلا أن الواضح أنه توفي بسبب مرض السلّ الذي أصابه في أيامه الأخيرة، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م.(١١٨)

---

(١١٤) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٦: ٢٤٧.

(١١٥) قال له: «والله لكأني بكتاب الحجاج قد جاء، فوقع إلى رتبيل يرغّبه ويرهّبه»؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٢٦.

(١١٦) الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٤: ١٨٤؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٩: ٥٧.

(١١٧) أحمد بن إسحاق اليعقوبي، *البلدان* (العراق: د. ن.، ١٣٣٧هـ)، ٤٩؛ و*تاريخ اليعقوبي*، ٢: ٢٧٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٢٢٧؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٩: ٥٧؛ زنيبر، *الإسلام منذ الانطلاقة الأولى*، ١٠٧.

(١١٨) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٦: ٢٦٠؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ٤: ١٨٤.

وعن وضع الجيش بعد ابن الأشعث، فقد أحسّ الحجاج أن الناقمين عليه عدد كبير، فخشي إن عفا عنهم أن يعودوا مرة أخرى لرفع السلاح في وجهه، فلجأ إلى محاسبة البعض ممن يخشى على سلطانه منهم، فمن وجد أنه مازال خارجا عن الطاعة نصحه، فإن استجاب وإلاّ أمر بقتله، حتى لا يفكر في الثورة أو الانضمام إلى ثائر آخر. وقد كان ممن قتل : الفضل بن مروان، وعمران بن عصام العنبري ... عفا عن كثير منهم : الطفيل ابن حكيم الطائي، وعامر بن المعتمر التميم.[١١٩]

ما ترتب على خروج ابن الأشعث

بناء مدينة واسط

قلّب الحجاج الأمور بعد انتصاره على ابن الأشعث، وانتهى به الأمر إلى أن مثل هذه الفتن والثورات لا يكفي أن تعالج بالشدة والقسوة فحسب، بل هي في حاجة - بالإضافة إلى ذلك - إلى أسلوب عملي يقوم على أساس صحيح،[١٢٠] فهو يعلم أن أهل العراق قد اعتادوا الخروج على واليهم كلما وجدوا الفرصة مواتية لذلك، والفرصة المناسبة في نظرهم هي : أن يحسّوا بالضعف في واليهم، وهذا لن يصلوا إلى معرفته إلاّ باحتكاكهم به وبجنده. وبناء على هذا التصور وجد أن بعد الجند عن العراق أحد الأسباب المهمة في دفعهم إلى الخروج عن الطاعة، فبناء مدينة تتوسط شقي العراق هو أحد السبل الهامة لإحكام السيطرة عليها، وإخماد ثوراتها في المهد.

وحين عمل دراسة وافية للموقع الأصلح لإقامة ذلك البناء، تبين له أن واسط أفضل مكان يمكن إقامة المدينة عليه، فقال : هذا واسط المصرين،[١٢١] وكتب إلى عبد الملك بن

---

(١١٩) ابن أعثم، الفتوح، ٧: ١٤٦، ١٤٩.

(١٢٠) العش، *الدولة الأموية*، ٢٢٢.

(١٢١) يذكر أن هذا المكان كان لرجل من داوران، فبعث إليه فاشتراها منه بعشرة آلاف درهم وسميت بواسط لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، لأن منها إلى كل واحدة خمسين فرسخا؛ أسلم بن سهل الواسطي، *تاريخ واسط*، تحقيق كوركيس عواد، ط٢ (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٦هـ)، ٣٨؛ ابن عبدالحق، *مراصد الاطلاع*، ٣: ١٤١٩.

مروان يستأذنه في بناء مدينة جديدة في ذلك المكان. ومن المؤكد أنه بيّن له المبررات التي دعته إلى ذلك، ولما كان الخليفة عبد الملك بن مروان متفهما للأحوال والظروف وافق الحجاج على رأيه مع ما فيه من التكاليف المالية الباهظة، فبنى القصر والمسجد والسورين وحفر الخندق في عامين، ٨٤ هـ - ٨٦ هـ/ ٧٠٣ - ٧٠٥ م،[١٢٢] وأنفق عليها خراج العراق كله خمس سنين،[١٢٣] ونقل إليها القوات الشامية لتقيم فيها إقامة دائمة ليتمكنوا من متابعة الثورات والفتن التي تحدث في أرض العراق، وبهذا الإجراء تبقى العراق آمنة - على الدوام - من كل ما من شأنه إثارة المشاكل والقلق على تلك الجهات. ولهذا نلاحظ أن تاريخ بنائها جاء في الوقت الذي انتهت فيه تلك الثورة والله أعلم.

تدهور الاقتصاد العراقي

من المتفق عليه أن العمران إنما هو محصل حتمي للاستقرار السياسي الذي كان بعيدا عن العراق خاصة في السنوات العشر الأخيرة (٧٢ - ٨٣ هـ/ ٦٩١ - ٧٠٢ م) - بما فيها أيام ثورة ابن الأشعث -وإذا كنا نعلم أن الحجاج وجّه كل طاقاته البشرية والزراعية والاقتصادية وسخرها من أجل القضاء على مثل هذه الفتن، والردّ على من خلع الطاعة أخيرا، فهذا يعني أنه تدهور الوضع الاقتصادي للبلاد فترة ليست بالقليلة، عانت منها الشعوب العراقية معاناة كبيرة، وتحملت الأمرّين في سبيل إبعاد الخطر عن بلادها، وخلق جو من الاستقرار السياسي فيها.

وكذلك كان لبناء واسط أثر كبير في تدهور الوضع الاقتصادي حيث أنفق عليها خراج خمس سنين، حتى أن الخليفة عبد الملك بن مروان خاف من هذا التطور فكتب الحجاج إليه: «إني اشتريت موضع مدينة واسط، وأنفقت عليه، وعلى حرب ابن الأشعث ما صار إليّ من الخراج.»[١٢٤]

---

(١٢٢) ياقوت، *معجم البلدان*، ٥ :٣٤٨.

(١٢٣) الواسطي، *تاريخ واسط*، ٣٩.

(١٢٤) الواسطي، *تاريخ واسط*، ٣٩.

اضطهاد الموالي

أصبح الموالي في نظر الحجاج يشكلون قوة عظيمة لابّد من الحدّ منها ومن خطورتها، ومع أننا أخبرنا – سلفا – أنه لم يكن لهم دور مستقل في رفع راية العصيان ضدّ الحجاج، لكن بحكم مشاركتهم في صفوف ابن الأشعث باتوا في نظر الحجاج خارجين على الطاعة، ولابد من تأديبهم ومعاقبتهم على ذلك، وما أن قضي على تلك الثورة حتى بادر إلى اضطهادهم، مما كان له ردّ فعل سلبي جدا على الدولة الأموية بكاملها، حيث أخذت عملية الهجرة للموالي – بسبب السياسة القمعية – تتحرك من العراق متجهة إلى المناطق الشرقية، حتى أضحت تلك الجهات مكانا خصبا لتجمع الناقمين ضدّ الدولة الأموية، وأصبحوا فيما بعد سببا في سقوطها سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م.

خاتمة البحث

الحمد لله حمد الشاكرين متم النعم والشكر له على ما تفضل به علينا وأتم وبعد.

فلقد تمخض هذا البحث عن دوافع غير مباشرة كانت سببا في خروج ابن الأشعث عن طاعة الحجاج، ومهدت لخلعه عن الولاية وفي مقدمتها:

– اختلاف وجهات النظر بين الحجاج وابن الأشعث.

– العصبية العراقية التي كان لها الأثر العظيم في النفوس منذ أيام النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وهذا يظهر حينما قال أحد أهل العراق ذلك الحين: «لأن أموت مع أهل العراق أحبّ إليّ من أن أعيش مع أهل الشام.»[١٢٥] ولعل ذلك هو السبب الذي دفعهم إلى إعلان خلع طاعة الحجاج جميعا في آن واحد.

– المعاملة التي كان ينتهجها الحجاج مع أهل العراق، حيث كانت تقوم في الأساس على الشدة والغلظة منذ أول يوم وطئت رجلاه العراق فقد خطبهم قائلا وقال: «إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها.»[١٢٦] وما كان الحجاج يتبع هذه السياسة لولا أنه علم عنهم أنهم يخضعون للوالي القوي ويخرجون على الضعيف، وهذا وإن خلق جوّا من

---

(١٢٥) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٦: ٥١٠.

(١٢٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٣٨.

الاستقرار - في نظر الحجاج - فهو في جانب آخر ولّد الكراهية والحقد في النفوس، فأصبح أهل العراق ينتظرون الفرصة المواتية للتنفيس عن ذلك، حتى جاءت الظروف التي أيقظت تلك الأحقاد وجعلتها تطفوا على السطح .

- سياسة رتبيل مع المسلمين حين بدأ يستدرجهم للدخول في البلاد حتى يقعوا في الكمين الذي نصبه لهم، فهذه الخطة دفعت بالمسلمين إلى أن يتمسكوا برأيهم، بل جعلتهم يصرّون عليه - وأقصد بذلك التوقف عن ملاحقة العدو مما سبب مخالفتهم لأوامر والي العراق (الحجاج) الذي رأى خلاف ذلك .

في حين كان هناك دافع مباشر، وهو يعتبر الثقاب الذي أوقد النار ألا وهو :

- إجبار الجندي العراقي على مواصلة التوغل خلف العدو رتبيل وأتباعه مع ما فيه من خطورة واضحة كالشمس، حيث قتل الكثير من المسلمين من جراء تطبيقهم هذه السياسة، وهذا - بلا شك - أيقظ الأحقاد والكراهية التي كانت مكبوتة في النفوس ضد سياسة الحجاج القمعية التي عاشوها فترة ليست بالقليلة، وهذا يفيد أن الحجاج أرهق النفوس بهذا الطلب العظيم، ولو قُدّر أنه تريث في الأمر ولم يصرّ على رأيه في التوغل لربما أخذت الأحداث مجرى آخر وغالبا سيكون النصر، ثم التوغل في بلاد رتبيل - وذلك في العام الذي يليه (سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م) والوصول أخيرا إلى مساكنهم وذراريهم ثم إخضاعهم لسلطة الدولة الإسلامية .

- ويبدو لي مما حدث أن الحجاج الثقفي - بدرجة كبيرة - كان يرغب في مواصلة القتال والفتح لإعلاء ذكره، حيث إن المعروف أن كل فتح ينسب إليه . وهذا لا يتفق - من وجهة نظري - مع المصلحة العامة للجيش الإسلامي في هذه البلاد .

ومما يدعم هذا الرأي إصراره على مواصلةالفتح وطلب ابن الأشعث التوقف عاما واحدا، فلم يكن غرض ابن الأشعث التوقف النهائي عن مواصلة الفتوح الإسلامية وإنما التوقف عاما واحدا يستعيد فيه الجند نشاطهم وإصلاح سلاحهم والاستعداد لجولة جديدة .

ومن الإنصاف ألا نلقي اللوم كله على الحجاج ، فعبد الرحمن بن الأشعث يتحمل جزءا من المسؤولية فيما حدث ، فنحن وإن كنا لا نشك في أنه قائد مسلم وخدم الدولة

الأموية ثم عاد فانقلب عليها ، لكن كان في مقدوره أن يواصل التضحية التي انطلق من أجلها، إما برفض القيادة للثورة التي أعلنت أن هدفها الخلع ، أو أنه - في أسوأ الحالات - تظاهر بقبول تلك القيادة، حتى إذا وصل أرض العراق تراجع عن قراره وعزمه، حقنا لدماء المسلمين من الجانبين.

هذا وإن أسهبت الكتب والمراجع عن القتال بين الطرفين، فإن ما نعرفه عن ابن الأشعث أنه كان يأمر جنده بالكفّ عن القتال وينهى بشدة عنه - وهذا لا يستغرب على قائد مسلم - لأنه كان يعلم أنه أمام طرف آخر مسلم، وكان يقول أحدهم ممن يقاتل في صفوف ابن الأشعث: «والله ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه، ولكن نقمنا عليه الحجاج.» [١٢٧]

ولا ننسى أن أهل العراق عزموا على أن يقبلوا كتاب الخليفة عبد الملك وما جاء فيه من عروض لكنهم حين علموا أنها مجرد وعود فحسب تراجعوا عما عزموا عليه. [١٢٨]

وما يهوّن الأمر أنها فتنة ابتلي المسلمون بها، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر مسبقا بهذه الفتن وقال: «ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتن كقطيع الليل المظلم» [١٢٩] كما أكد الحسن البصري - رحمه الله - على ذلك قائلا: « ما هي - ثورة ابن الأشعث - إلاّ فتنة صمّاء ، وذلك أنهم لم يختلفوا في ربّ ولا نبي ولا كتاب ولا قبلة.» [١٣٠]

ولقد وعى ذلك كلا الطرفين ، حتى قال الحسن البصري : « إن ذلك امتحان من الله عزّ وجلّ ، فقابلوا ذلك بالتضرع والاستغفار.» [١٣١]

---

(١٢٧) ابن الجوزي ، *المنتظم* ، ٦ : ٢٣٤ .

(١٢٨) ابن أعثم، *الفتوح* ، ٧: ١٣٧ .

(١٢٩) عماد الدين إسماعيل بن كثير ، *النهاية في الفتن والملاحم* ، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز (القاهرة : المكتب الثقافي، د.ت.)، ١: ٦٨ .

(١٣٠) ابن أعثم، *الفتوح* ، ٧: ١٤٦ .

(١٣١) ابن الجوزي، *المنتظم* ، ٦ : ٢٣٤ .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه ، وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل ، وأن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

A Historical Analysis of the Attitude of the Omayyad State towards Ibn Al-Asha'th (A.H. 79-83/689-702)

Mohamed ben Nassir Al-Mulhim

Associate Professor, Faculty of Shari'ah and Islamic Studies in Al-Hasa, Imam Mohammed Ibn Saud Islamic University, Saudi Arabia

Abstract : This research deals with Ibn Al-Asha'th and his military expedition in the Turkish lands. It also deals with his dispute with al-Hajjaj, his superior, and the attitude of the soldiers concerning this dispute. In this research, I have also shed light on some factors that enkindled this dispute, such as Iraqi fanaticism, the role of the non-Iraqis, and the nature of Iraqi society. Then I exposed, in general, the attitude of the Omayyad state towards Ibn Al-Asha'th and the most significant results caused by his forsaking of it.

مجلة جامعة الملك سعود، م ١٣، الآداب (١)، ص ص ١٦٧-١٩٦ (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي القويعية بالمملكة العربية السعودية

محمد بن عبدالله الصالح

أستاذ مشارك، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الملك سعود،
الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ٢١/ ١/ ١٤١٩هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ١٠/ ٨/ ١٤١٩هـ)

ملخص البحث. يعد حوض وادي القويعية أحد أحواض التصريف المائي الرئيسة المأهولة بالسكان في محافظة القويعية. ويقع هذا الحوض في وسط المملكة العربية السعودية على الحدود الشرقية للدرع العربي. فهو يصرف المياه السطحية لمعظم المنطقة الواقعة بين دائرتي عرض ٥٠َ ٢٣ْ و٠٥َ ٢٤ْ شمالا وخطي طول ٤٥ْ و٣٠َ ٤٥ْ شرقا. وتنتشر على طول الوادي وفروعه العديد من المزارع التقليدية وتقع مدينة القويعية بالقرب من رأس المروحة الفيضية لهذا الحوض. وحيث إن الدراسات الجيومورفولوجية عن حوض وادي القويعية قليلة جدا، وكذلك توفير المعلومات الجيومورفولوجية له أهمية كبيرة سواء للأغراض الأكاديمية أو للدراسات التطبيقية، لذا فإن الهدف الرئيسي لهذه الدراسة هو إعداد خريطة جيومورفولوجية متوسطة المقياس لحوض وادي القويعية تبين التوزيع الجغرافي للأشكال الأرضية الرئيسة مصنفة حسب نشأتها، ثم وصف ومناقشة محتواها كمحاولة لشرح نشأة الأشكال الأرضية في الحوض وتطورها. وقد أظهرت هذه الدراسة التوزيع الجغرافي للأشكال الأرضية الرئيسة في الحوض والعلاقات المكانية فيما بينها. كما أوضحت أن حوض وادي القويعية يصرف بشكل رئيس مياه منطقة جرانيتية تتكون بشكل رئيس من سهول تظهر في بعض أجزائها التلال-الجبال المنفردة وتحيط بها مناطق جبلية.

وبينت أيضا أن نشأة سهول التعرية والتلال-الجبال المنفردة وتطورها في الحوض يمكن شرحها من خلال نموذجين هما نموذج تكون السهول الصخرية pediplanation ونموذج تكون السهول الصخرية المجواة etching . وأظهرت هذه الدراسة أيضا أن التلال والجبال المنفردة في السهول الصخرية المجواة تتعرض لإعادة تشكيل تتفق مع النموذج الأول.

مقدمة

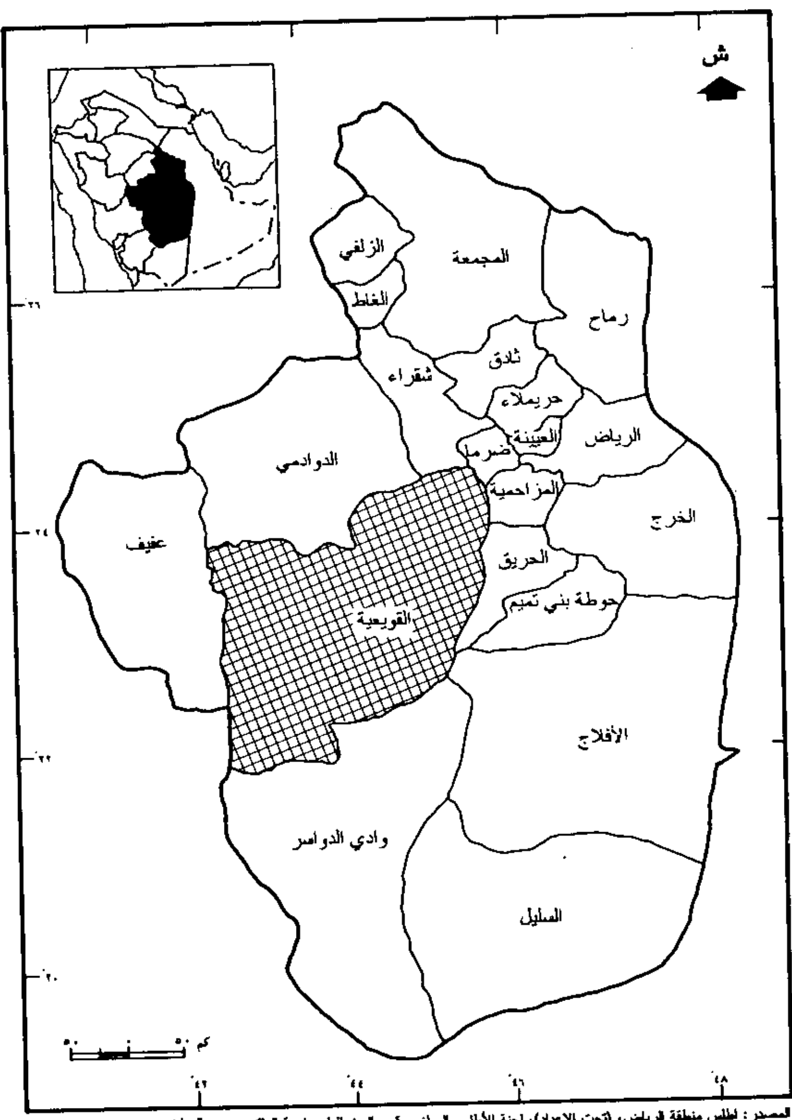
تقع محافظة القويعية في وسط المملكة العربية السعودية، إذ تقع حدودها الإدارية بين دائرتي عرض ٢٢ْ و٢٥ ٢٤َْ شمالا وخطي طول ٣٠ ٤٢َْ و٤٦ْ شرقا (شكل رقم ١). وتنقسم من الناحية الجيولوجية إلى قسمين رئيسين. فالجزء الغربي منها يقع ضمن الدرع العربي الذي يتكون من صخور نارية ومتحولة بينما يقع الجزء الشرقي ضمن الرف العربي الذي يتكون من صخور رسوبية.

لاشك أن المعلومات الجيومورفولوجية لها أهمية كبيرة سواء للأغراض الأكاديمية أو للدراسات التطبيقية، ولكن الدراسات الجيومورفولوجية عن محافظة القويعية قليلة جدا، ويمكن حصرها في ثلاث دراسات فقط تغطي أجزاء محدودة من هذه المحافظة. وسوف يتم استعراضها من الأحدث إلى الأقدم على العكس مما هو مألوف عند مراجعة الدراسات السابقة. أعد الجعيدي [١] خريطة جيومورفولوجية بمقياس ١ : ١٠٠٠٠ لحوض وادي الحرملية بمحافظة القويعية معتمدا في ذلك على تفسير الصور الفضائية المتبوع بالمسح الميداني. وأعد الصالح [٢] خريطة جيومورفولوجية بمقياس ١ : ١٣٠٠٠ لحوض وادي الخنقة بمحافظة القويعية ضمن دراسته المتعلقة بتقويم المياه الجوفية في الوادي المذكور.

---

(١) فرحان حسين الجعيدي، «دور مرئيات الاستشعار عن بعد في إعداد الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي الحرملية،» رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧م.

(٢) M. A. Al-Saleh, "The Application of the Systematic Mapping in Geomorphology for Groundwater Assessment in Wadi Al-Khanagah, Central Saudi Arabia," unpublished Ph.D. thesis, University of Southampton, UK, 1988.



شكل رقم ١ . موقع محافظة القويعية.

المصدر : *أطلس منطقة الرياض* (الرياض : لجنة الأطلس الوطني، قسم الجغرافيا، جامعة الملك سعود، ١٩٩٩م.

وأخيرا تعد الدراسة التي قدمها منشي [٣] أول دراسة جيومورفولوجية عن محافظة القويعية، وكانت تلك الدراسة ترمي إلى هدفين رئيسين. الأول هو إعداد خريطة جيومورفولوجية شبه تفصيلية بمقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ لمنطقة دراسة في وسط المملكة العربية السعودية والتي تضمنت حوض وادي القويعية، والهدف الثاني هو تحليل كمي لمواد بعض الأشكال الأرضية الإرسابية. وحيث إن منطقة دراسته كبيرة نسبيا (٤١٢٥ كيلومترا مربعا) وذات خصائص جيولوجية وجيومورفولوجية متنوعة، لذا فإنه اعتمد عند إعداد الخريطة الجيمورفولوجية بدرجة كبيرة على تفسير الصور الجوية دون أن يتبع ذلك بمسح ميداني شامل للتأكد من صحة التفسير، وذلك لأن المسح الميداني الشامل لمثل هذه المنطقة يفوق المجهود الفردي، وخصوصا أن شبكة الطرق المعبدة أو الممهدة كانت معدومة في منطقة دراسته. وبسبب غياب الخرائط الطبوغرافية وقلة الخرائط الجيولوجية الجيدة في ذلك الوقت، وبالتالي اعتماده على تفسير الصور الجوية، أدى ذلك إلى عدم الدقة في الخريطة التي أعدها. فعلى سبيل المثال، لم تمثل على الخريطة كل من المروحة الفيضية لحوض وادي الخنقة والمروحة الفيضية لحوض وادي القويعية بالرغم من أنهما من الظواهر الجيومورفولوجية الرئيسة في منطقة دراسته. كما أن حافة خط الصدع (صدع الأمار-ادساس) تعد أيضا من الظواهر الرئيسة في منطقة دراسته ولكنها لم تظهر على الخريطة.

أما بالنسبة لحوض وادي القويعية في تلك الخريطة، فيوجد العديد من النواقص والأخطاء منها عدم ظهور الإندساسات (السدود/ القواطع) الرأسية dykes على الخريطة مع أنها من الأشكال الأرضية المميزة والمنتشرة والواضحة في الحوض، وخصوصا في الجزء الجنوبي الغربي منه. إضافة إلى ذلك، فإن أحد الأشكال الأرضية الإرسابية التي يطلق عليها في الأدب الجيومورفولوجي مصطلح الحمادة hamada وتسمى محليا بالحزم ظهر على الخريطة المذكورة على أنه ridges formed by intersection of valley sides . ومن الأخطاء أيضا تمثيل حافة خط الصدع fault line scarp على طول الحدود الجنوبية والجنوبية الغربية للحوض بالرغم من أن الصور الجوية والفضائية لا توحي بذلك والخرائط

(٣) Z.M. Munshi, "Gemorphological Mapping and Landform Analysis in Central Saudi Arabia," unpublished Ph.D. thesis, University of St. Andrews, UK, 1974.

الجيولوجية المتوافرة لا تظهر ذلك أيضا. إضافة إلى ذلك، لم تظهر سفوح الحضيض (البيديمنتات) pediments ، وهي من الأشكال الأرضية شائعة الوجود في معظم أجزاء الحوض على الخريطة في الجزء الذي يغطي حوض و ادي القويعية بالرغم من أن الكاتب ذكر في النص أنه يوجد سفح حضيض (بيديمينت) في الأجزاء السفلية من الحوض بطول ١٣٥٠م. وتجب الإشارة هنا إلى أن دراسة منشي دراسة رائدة، وأن هذه النواقص والأخطاء لا تقلل من القيمة العلمية لها.

هدف الدراسة

ليست الخريطة الجيومورفولوجية وسيلة لتمثيل المتغيرات الجيومورفولوجية فحسب، بل هي أيضا طريقة للبحث في الجيومورفولوجيا.[٤] فالخريطة الجيومورفولوجية تقدم معلومات عن طبيعة ونشأة الأشكال الأرضية والمواد التي تتكون منها وتدل أيضا على العمليات التي شكلتها. كما أن الفائدة منها لا تقتصر على الجيومورفولوجيين فقط، بل إنها تخدم المهندسين والجيولوجيين والمخططين أيضا. فهي في الحقيقة تعد مصدرا جيدا للمعلومات في الدراسات التطبيقية في مجالات إدارة البيئة وتنميتها وتقويم ومسح الموارد الطبيعية.[٥] ولكن نوع المعلومات والتفاصيل التي تقدمه الخريطة الجيومورفولوجية تعتمد على مقياسها وعلى الهدف منها.[٦] وتجب الإشارة هنا إلى أن هذه الدراسة لا

---

(٤) J. Demek, ed., *Manual of Detailed Geomorphological Mapping* (Prague: Academia, 1972); R. Hayden, "Geomorphological Mapping," in N.M. Short and R.W. Blair, eds., *Geomorphology from Space: a Global Overview of Regional Landforms* (Washingtion, DC.: NASA, 1986), 637-56;L.W.S. DeGraaff et al. "A Geomorphological Mapping System at a Scale 1:10,000 for Mountainous Area," *Annals of Geomorphology*, 31, (1987), 229-42.

(٥) R.U. Cooke and J.C. Doornkamp, *Geomorpholgy in Environmental Management* (Oxford: Clarendon Press, 1974), (2nd ed., 1990); A. R. Jones, "An Evaluation of Satellite Thematic Mapper Imagery for Geomorphological Mapping in Arid and Semi-arid Environments," in V. Gardiner, ed., *International Geomorphology* (Chichestier: John Wiley and Sons, 1987), 343-58.

(٦) J. Demek, "Geomorphological Mapping: Progress and Problems," *Studia Geographica*, Brno, 55 (1976), 35-49.

تهدف إلى إعداد خريطة جيومورفولوجية تفصيلية شاملة، وذلك لأن إعداد مثل هذه الخريطة أمر مكلف من الناحية المادية، كما أن تنفيذها يفوق المجهود والإمكانات الفردية ويحتاج إلى مدة زمنية طويلة نسبيا. وعليه، فإن هذه الدراسة تهدف إلى إعداد خريطة جيومورفولوجية (مورفوجينية morphogenetic) متوسطة المقياس لحوض وادي القويعية تبين التوزيع الجغرافي للأشكال الأرضية الرئيسة مصنفة حسب نشأتها، ثم وصف محتواها ومناقشته كمحاولة لشرح نشأة الأشكال الأرضية في الحوض وتطورها.

أساليب الدراسة

تحقيقا لهدف هذه الدراسة فقد اتبعت الخطوات التالية:

١) توفير بعض المعلومات الضرورية لهذه الدراسة من المؤسسات الحكومية وذلك على النحو التالي:

أ - الحصول على لوحتين من مصفوفة (موزايك) مصححة للصور الجوية controlled photo mosaic مقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ وعلى الخرائط الجيولوجية من وزارة البترول والثروة المعدنية.

ب - الحصول على صورة مركب الألوان الخاطئة العادية للماسح الموضوعي Thematic Mapper (TM) (نطاق٢ : أزرق ونطاق٣ : أخضر ونطاق٤ : أحمر) مقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ وعلى لوحات الخريطة الطبوغرافية مقياس١ : ٥٠٠٠٠ من المساحة العسكرية.

٢) إعداد خريطة الأساس base map للحوض من لوحات الخريطة الطبوغرافية رقم ٤١-٤٥٢٣ ورقم ٤٤-٤٥٢٣ ورقم ٣٢-٤٥٢٤ ورقم ٣٣-٤٥٢٤، والتي تم تصغيرها إلى مقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ لتتوافق مع لوحتي المصفوفة المصححة للصور الجوية.

٣) القيام بزيارة ميدانية استطلاعية للحوض، فبعد رسم الصورة العامة لجيولوجية وجيومورفولوجية الحوض من خلال الدراسة المكتبية تم التجول في الحوض لمدة يومين بهدف الاستطلاع والتعرف على طبيعة الأشكال الأرضية الرئيسة وتوزيعها والعلاقات المكانية بينها تمهيدا للقيام بعملية تفسير الصور.

٤) بهدف تعريف الأشكال الأرضية تم تفسير المصفوفة المصححة للصور الجوية وصورة الماسح الموضوعي مع الاستعانة بالخرائط المتوافرة. وكما هو متبع في تفسير الصور فقد استخدمت في هذه العملية العناصر الدالة على الظواهر (درجة اللون tone/ color ، والنمط pattern ، والشكل shape ، والحجم size). ووفقا لقواعد تفسير الصور، فقد بدأت عملية التفسير بتعريف الأشكال الأرضية الرئيسية، وبعد ذلك أجري فحص شامل ومتأن لجميع أجزاء الحوض على الصورة، وذلك للتعرف على التفاصيل الجيومورفولوجية. ولتسهيل عملية التفسير استخدمت عدسة التكبير المضيئة عند الحاجة.

٥) بطريقة الشف المباشر وبناء على التفسير البصري للصور، تم إعداد الخريطة الجيومورفولوجية الأولية على خريطة الأساس بمقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ استعدادا للمسح الميداني. وقد احتوت هذه الخريطة على الأشكال الأرضية التي تم تعريفها من خلال عملية التفسير، وكذلك الأشكال الأرضية الأخرى التي رسمت حسب تجانسها على الصور وأعطيت رموزا مؤقتة ليتم تعريفها في الحقل.

٦) للتأكد من صحة التفسير ولتعريف بعض الأشكال الأرضية تم القيام بمسح ميداني منظم وشامل لجميع أجزاء الحوض استغرق ١٧ يوما. ولهذا الغرض فقد قسم الحوض إلى مناطق صغيرة تمت زيارة كل واحدة منها والتجول فيها لمطابقة الأشكال الأرضية الممثلة على الخريطة الأولية مع ما هو موجود على الطبيعة. وقد اعتمد في ذلك على كل من المشاهدة المباشرة والتفسير الجيومورفولوجي للأشكال الأرضية. كما تم التركيز بشكل خاص على طبيعة الأشكال الأرضية الصغيرة التي لم تظهرها الصور الجوية والفضائية المستخدمة، وذلك بهدف تفسير نشأة بعض الأشكال الأرضية في الحوض وتطورها.

٧) بعد اكتمال العمل الميداني ورسم الأشكال الأرضية على الخريطة الجيومورفولوجية الأولية تم إعداد الخريطة الجيومورفولوجية النهائية للحوض وذلك بتحبيرها وتظليلها وإخراجها في صورتها النهائية. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه عند ترميز الخريطة استخدم «نظام المعهد الدولي للمساحة الجوية والفضائية وعلوم الأرض (ITC)

للمسح الجيومورفولوجي» وذلك لأن القائمين عليه يعملون على تطويره باستمرار وكذلك يمكن استخدامه للخرائط الجيمورفولوجية كبيرة ومتوسطة المقياس.[٧] وحيث إن هذا النظام لا يتضمن رموزا لبعض الأشكال الأرضية في الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي القويعية ولم يوجد ما يسد هذا النقص في نظام الاتحاد الجغرافي الدولي (IGU)،[٨] لذا فقد استخدمت رموز جديدة لعدد من الأشكال الأرضية فيها وهي:

١) جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-إدساس.
٢) تلال متقطعة.
٣) سهول صخرية مع تلال-جبال منفردة.
٤) سهول صخرية مجواة مع تلال-جبال منفردة.
٥) المنحدر الخلفي للكويستا.

منطقة الدراسة

يعد حوض وادي القويعية أحد أحواض التصريف الرئيسة المأهولة بالسكان في محافظة القويعية. ويقع هذا الحوض في وسط المملكة العربية السعودية على الحدود الشرقية للدرع العربي. فهو يصرف مياه معظم المنطقة الواقعة بين دائرتي عرض ٥٠َ ٢٣ْ و٠٥َ ٢٤ْ شمالا وخطي طول ٤٥ْ و٣٠َ ٤٥ْ شرقا. وتنتشر على طول الوادي وفروعه العديد من المزارع التقليدية التي تعتمد كلية على المياه الجوفية المتجددة المخزونة في رواسب الأودية وما تحتها من صخور مجواة. ويشغل الجزء القديم من مدينة القويعية بطن هذا الوادي الضيق نسبيا عند مخرجه من المنطقة الجبلية إلى المنطقة السهلية الواقعة إلى الشرق منه والتي تشغل جزءا منها مروحته الفيضية.

---

(٧) H.Th. Verstappen and R.A. van Zuidam, *The ITC System of Geomorphologic Survey: A Basis for the Evaluation of Natural Resources and Hazards,* ITC Publication no. 10 (The Netherlands: International Institute for Areospace Survey and Earth Sciences (ITC), 1991).

(٨) J. Demek, ed., *Manual of Detailed Geomorphological Mapping* (Prague: Academia, 1972).

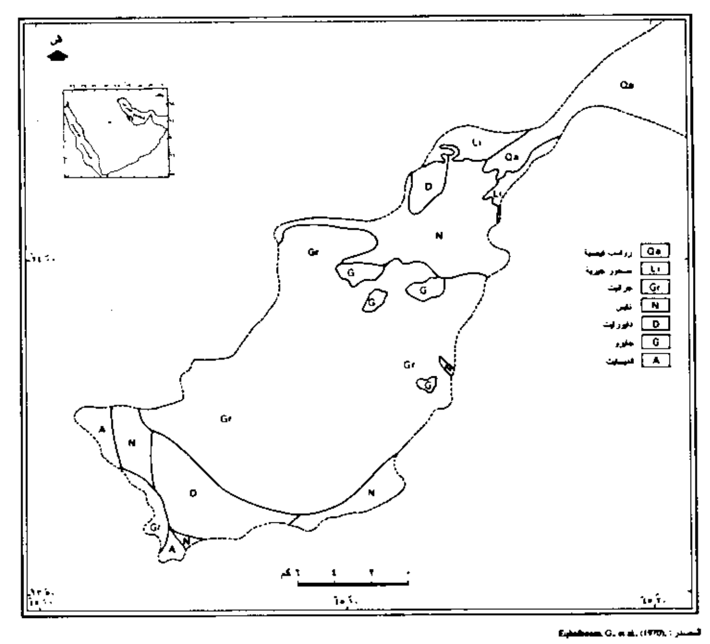
الإطار الجيولوجي

يعتقد أن نشأة بعض الأشكال الأرضية وتطورها في حوض وادي القويعية مرتبط بالخصائص الجيولوجية فيه، لذا فإن التعرف على جيولوجية المنطقة من الأمور الضرورية لهذا الغرض. فمن حسن الحظ أن Nebert [٩] أجرى دراسة جيولوجية جيدة مبنية بشكل رئيس على المسح الميداني لمنطقة الحوض والمناطق المجاورة لها. فقد ذكر Nebert في دراسته أن الدرع العربي غرب مدينة القويعية يتكون من وحدتين جيولوجيتين رئيستين، إحداهما تقع إلى الغرب من صدع مرقان (الأمار-ادساس) والأخرى إلى الشرق منه. فالتكوين الجيولوجي الغربي (تكوين العبد) يتكون بشكل رئيس من الشيست؛ أما التكوين الجيولوجي الشرقي (تكوين حلبان) فيحتوي على أنواع مختلفة من الصخور النارية والمتحولة تتضمن صخور الجرانيت والنايس وا لدايورايت والجابرو والانديسايت (شكل رقم ٢). ويعتقد Nebert أن الوحدة الجيولوجية الشرقية، التي يقع حوض وادي القويعية ضمنها، كانت تمثل حوضا جيولوجيا مقعرا geosyncline تكونت في قاعه طبقة من الرواسب ثم تعرض في فترة لاحقة إلى نشاط ناري ملأه بالمقذوفات البركانية. وبعد فترة من الزمن تعرضت الصخور في هذا التكوين إلى الطي، ولكن نظام الطي في هذا التكوين تحطم حينما اقتحمت الصهارة الجرانيتية granitic magma مناطق الضعف فيه. ونتيجة لنشاط العمليات الجيومورفولوجية المختلفة تم تخفيض السطح الأصلي وظهرت في بعض المناطق كتل جرانيتية مختلفة الأشكال والأحجام.

يتكون حوض وادي القويعية بشكل رئيس من صخور جرانيتية ولكنها تختلف في مكوناتها المعدنية. فقد أشار Nebert إلى أن الأجزاء العليا من الحوض تتكون من صخور جرانيتية تميل إلى اللون الأحمر وذلك لأنها غنية بالفلسبارات البوتاسية. أما وسط الحوض فيتكون من صخور جرانيتية عادية ولكن مكوناتها المعدنية تتأثر بمعادن الصخور الأصلية country rocks بالابتعاد عن مركز الاندساس الصخري pluton.

---

(٩) K. Nebert, "Geology of Western Al-Quwayiyah Region Saudi Arabia," *N. Jb. Geol. Paleont. Abh.*, 135 (1970), 150-70.



شكل رقم ٢ . خريطة أنواع الصخور في حوض وادي القويعية .

يذكر Nebert أن الصخور الجرانيتية إلى الشرق من الصدع تشكلت قبل عصر البرمي مستدلا في ذلك على أن بعض أجزائها تغطيه صخور العصر البرمي الجيرية المتمثلة في تكوين خف (نسبة إلى بلدة خف)، ولكنها أحدث عمرا من الصخور النارية الأخرى، في تكوين حلبان . من جهة أخرى يعتقد .Vaslet et al (١٠) أن الصخور الجرانيتية في الحوض تشكلت فيما قبل الكمبري . فقد أشاروا إلى أن أعمار الصخور لثلاث عينات أخذت من الحوض تتراوح بين ٦٣٢ إلى ٦٦٧ مليون سنة . كما ذكروا أن الحركات الأرضية (التكتونية) قبل ٦٣٢ مليون سنة في ما أطلقوا عليه اسم طور إدساس Idsas phase هي المسؤولة عن التدسر thrusting لصدع الأمار-ادساس .

في الوقت الحاضر، تغطي الصخور الجيرية لتكوين خف الأجزاء السفلية من حوض

---

(١٠) D. Vaslet et al., "Geologic Map of Wadi ArRayn Quadrangle," Sheet 23H, Kingdom of Saudi Arabia, Ministry of Petroleum and Mineral Resources, Jeddah, 1983.

وادي القويعية والتي تعود إلى العصر البرمي. ولكن Eijkelboom [١١] يذكرون أن صخور خف الجيرية في هذا الحوض تعلو طبقة غير سميكة من صخور رملية لتكوين الساق التي تعود للعصرين الأردوفيشي والكمبري. وعلى الرغم من أن الصخور الرسوبية لا تغطي في الوقت الحاضر سوى الأجزاء الشرقية من حوض وادي القويعية، إلا أنه من المحتمل أنها كانت تمتد غربا لتغطي الجانب الصاعد من صدع الامار-اداس الواقع إلى الغرب من الحوض. ومما يستدل به على ذلك الأودية الرئيسة (مثل وادي الخنقة و وادي الحرملية) القريبين من حوض وادي القويعية والتي تقطع الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس بمجاري ضيقة وعميقة، الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأنها مجار مائية منطبعة superimposed streams. [١٢]

الخلفية المناخية

يعد المناخ أيضا في مقدمة العوامل المؤثرة على نشأة الأشكال الأرضية وتطورها في حوض وادي القويعية لأنه يحكم بدرجة كبيرة نوع ونشاط العمليات الجيومورفولوجية. فالأشكال الأرضية الرئيسة في هذا الحوض لا يعتقد أنها انعكاس للعمليات الجيومورفولوجية في الوقت الحاضر، وذلك لأن تشكيل سطح الأرض يستغرق وقتا طويلا. فمن المرجح أن الحوض تعاقبت عليه فترات جفاف وفترات رطوبة وهي بلا شك لها تأثير على نوع العمليات الجيومورفولوجية ونشاطها. لا توجد دراسات عن التغيرات المناخية في محافظة القويعية، ولكن تشير الصخور الجرانيتية المجواة في حوض وادي القويعية (التي يصل عمقها إلى ٢٠م) إلى تعرض الحوض إلى مناخ أكثر رطوبة مما هو عليه في الوقت الحاضر. كما أنه يمكن الاستدلال على ذلك بالأودية الكبيرة في محافظة القويعية التي تظهر الخرائط الطبوغرافية والصور الجوية والفضائية أنها تشكل جزءا من نظام نهري قديم لحوض يصرف مياه الأجزاء الشرقية من الدرع العربي، ولكن

---

(١١) G. Eijkelboom et al., *Geology and Mineral Resources of the Al Amar-Ar Rayn Quadrangle* (Jeddah: Ministry of Petroleum and Mineral Resources, 1970).

(١٢) Al-Saleh, "Application."

قلة الأمطار ونشاط حركة الرمال في الوقت الحاضر أديا إلى اقتصار الجريان السطحي على الأجزاء العليا من هذه الأودية واختفاء بعض أجزائها السفلية وبالتالي انفصالها عن بعضها البعض. والمياه الجوفية الحفرية (القديمة) في خزان المنجور الواقع في الجزء الشرقي من محافظة القويعية والتي يقدر عمرها بآلاف السنين دليل آخر على التغير المناخي في المنطقة. وحيث إن التغيرات المناخية تحدث على نطاق كبير نسبيا، لذا فإنه من المناسب التعرف على فترات الرطوبة التي تعرضت لها المملكة العربية السعودية.

يشير Anton [١٣] إلى أن المملكة قد تعرضت لفترة رطبة في أواخر البلايوسين وأوائل البلايستوسين Late Pliocene - Early Pleistocene ونتيجة لذلك تشكلت شبكة ضخمة من المجاري المائية تبدأ من المنحدرات الشرقية لجبال السروات وكانت تصب في الخليج العربي. ومن أهم الأنظمة النهرية القديمة في المملكة وادي الرمة ووادي السهباء ووادي الدواسر. ويذكر Hotzl and Zotl [١٤] أيضا أن المملكة في العصر الرباعي قد تعرضت إلى فترات متقطعة تتسم بالرطوبة. فقد ذكرا أن المملكة تعرضت لمناخ يتسم بالرطوبة في الفترة ما بين ٢٥٠٠٠ سنة إلى ٣٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، وفي الفترة ما بين ٨٠٠٠ سنة إلى ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر.

في الوقت الحاضر، يتسم مناخ محافظة القويعية بالحرارة والجفاف كما هو الحال في معظم الأجزاء الداخلية من المملكة العربية السعودية. ولا توجد محطات رصد للعناصر المناخية المختلفة في محافظة القويعية سوى أربع محطات مطرية إحداها في مدينة القويعية الواقعة في منطقة الدراسة. ولكن يمكن استخدام بيانات أقرب محطة للحصول على مؤشرات عن الخصائص المناخية في منطقة الدراسة. وتعد محطة الرياض أقرب محطة للحوض والتي تقع على دائرة عرض ٢٤ْ ٤٢َ شمالا وتبعد بمسافة ١٦٠كم تقريبا إلى الشرق من مدينة القويعية. وقد ذكر الشريف [١٥] أن الرياض تتصف بصيف طويل

(١٣) D. Anton, "Aspects of Geomorphological Evolution Palesols and Dunes in Saudi Arabia," in A.R. Jado and J.G. Zotl, *Quaternary Period in Saudi Arabia* (New York: Springer Verlag, 1984), 2:275-96.

(١٤) H. Hotzl and J.G. Zotl, "Climatic Changes during the Quaternary Period," in S.S. Al-Sayari and J.G.Zotl, eds., *Quaternary Period in Saudi Arabia* (NewYork: Springer Verlag, 1978), 301-11.

(١٥) عبدالرحمن صادق الشريف، *جغرافية المملكة العربية السعودية*، ط٢ (الرياض: دار المريخ، ١٩٩٤م).

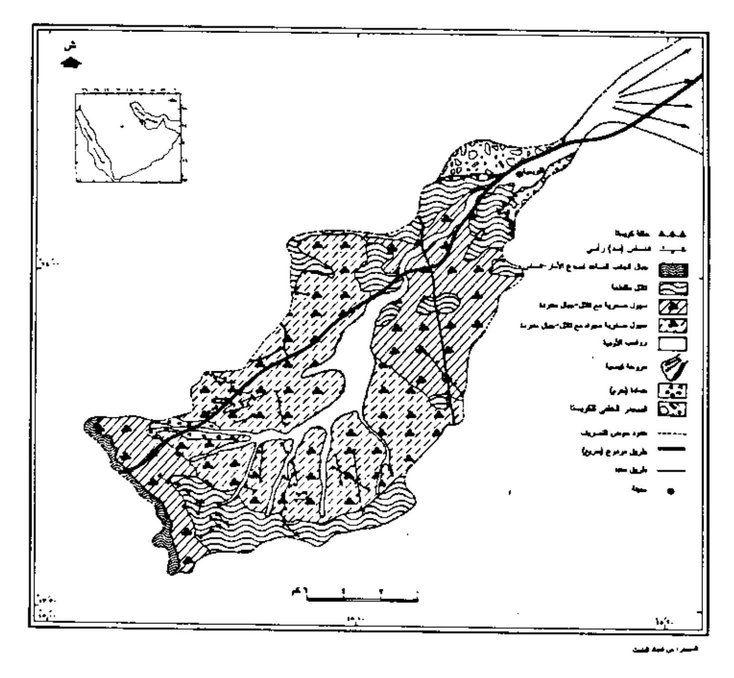
شديد الحرارة (معدل الحرارة لشهر يوليو ٣٤ْم) وشتاء معتدل يميل للبرودة (معدل الحرارة لشهر يناير ٧ْم)، وتكون الرطوبة النسبية منخفضة في فصل الصيف بمعدل لشهر يوليو يساوي ١٧٪، بينما تكون متوسطة في فصل الشتاء بمعدل لشهر يناير يساوي ٤٧٪. وترتفع معدلات التبخر من الحوض حيث يصل المعدل السنوي إلى ٢٩٠٠م. أما بالنسبة للأمطار فقد أجرى الصالح[١٦] دراسة عن التحليل التكراري لكميات الأمطار في محافظة القويعية. وقد أظهرت نتائج دراسته أن المعدل السنوي للأمطار في محطة قياس الأمطار بمدينة القويعية للفترة من ١٩٦٦م إلى ١٩٩١م حوالي ١١٧م وبانحراف معياري قدره ٨٤ ومعامل اختلاف حوالي ٧٢٪، مما يدل على قلة وتذبذب الأمطار. كما تبين من تلك الدراسة أن سقوط ٥م و١٠م و٢٠م و٤٠م و٦٠م في يوم واحد متوقع تكراره سنويا بنسبة ٩٠٪ و٨٠٪ و٥٠٪ و٣٠٪ و٥٪ على التوالي.

تحليل الخريطة الجيومورفولوجية للحوض

تم إعداد الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي القويعية على خريطة أساس بمقياس١ : ١٠٠٠٠٠ ثم تم تصغيرها (شكل رقم ٣). و تجدر الإشارة هنا إلى أن الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي القويعية ليست خريطة تفصيلية، ولذا فقد كان من المتعذر تمثيل جميع الأشكال الأرضية الصغيرة نسبيا عليها حسب مواقعها الجغرافية، الأمر الذي جعلها تقتصر بدرجة كبيرة على إظهار الأشكال الأرضية الرئيسة في الحوض.

يعد حوض وادي القويعية مثالا لتجمعات الأشكال الأرضية في صخور الدرع العربي البلورية بمحافظة القويعية. ويصرف هذا الحوض بشكل رئيس مياه منطقة جرانيتية تتكون بشكل عام من أرض صخرية قليلة التضرس (منبسطة نسبيا) تغطي معظم أجزائها طبقة غير سميكة من المواد الصخرية المفككة المنقولة (رواسب فيضية) وغير منقولة. وتظهر في هذه الأرض المنبسطة نسبيا العديد من الجبال والتلال المنفردة (المنعزلة). أما المناطق

(١٦) محمد عبدالله الصالح، *التحليل التكراري لكميات الأمطار في منطقة القويعية بالمملكة العربية السعودية*، سلسلة بحوث جغرافية، ١٧ (الرياض: الجمعية الجغرافية السعودية، ١٩٩٤م).



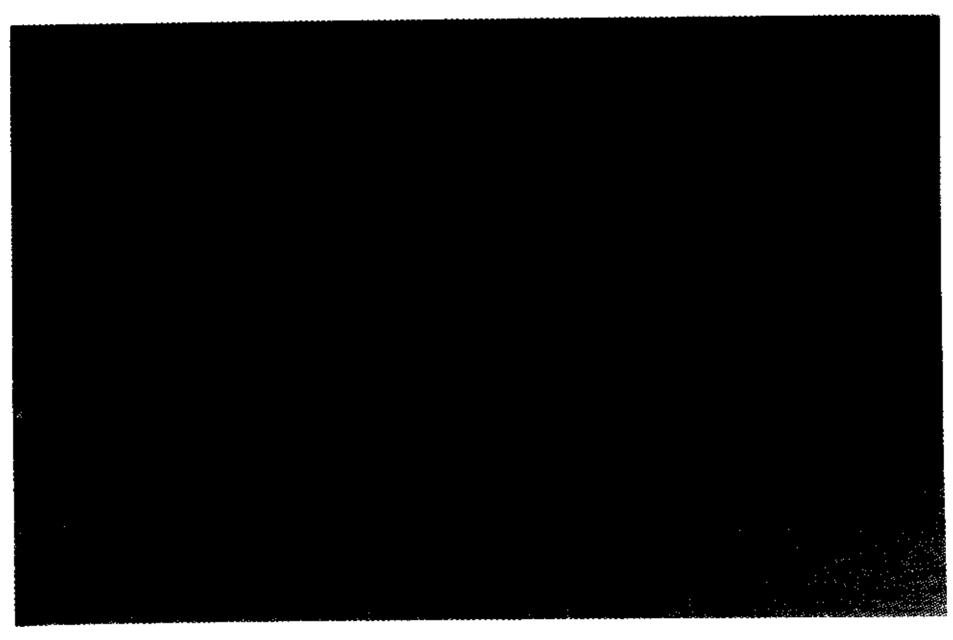
شكل رقم ٣. الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي القويعية.

المحيطة بها فتتكون بشكل رئيس من جبال وتلال تقطعها الأودية (صورة رقم ١). وبشكل عام، ينحدر السطح في الحوض تدريجيا نحو الشمال الشرقي، الأمر الذي يجعل المجرى الرئيس يتبع الانحدار العام نفسه. فالمجرى الرئيس فيه يبدأ من جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار–ادساس في الغرب ويتجه نحو الشمال الشرقي إلى أن يخرج إلى أرض سهلية شرق مدينة القويعية. وفيما يلي وصف وتحليل لمحتوى الخريطة الجيومورفولوجية حسب ترتيبها في المفتاح.

يقطع صخور الحوض عدد كبير من الاندساسات (السدود) الرأسية وخصوصا في الجزء الشمالي الغربي والجزء الجنوبي منه. وتتكون هذه الاندساسات الرأسية بشكل رئيس من صخور الدايسايت dacite. وتتفاوت في أطوالها إذ إنها قد تصل عدة كيلومترات. وتظهر الإندساسات الرأسية في الحوض على شكل حواجز (ضلوع) ridges، وذلك لأن صخورها تقاوم العمليات الجيومورفولوجية أكثر من صخور الحوض (صورة رقم ٢).



صورة رقم ١ . صورة فضائية لحوض وادي القويعية .



صورة رقم ٢ . اندساس (سد) رأسي يقع في الجزء الشمالي الغربي من الحوض .

فالاندساسات الرأسية في الجزء الشمالي الغربي متقاربة وشبه متوازية ممتدة من الشرق إلى الغرب. أما الاندساسات الرأسية الرئيسة في الجزء الجنوبي من الحوض، فتمتد بشكل عام من الجنوب إلى الشمال. ويشير Vaslet et al (١٧) إلى أن نشأة السدود الرأسية في الحوض مرتبطة بالنشاط الناري في ما أسموه طور الرمة Ar-Rimah Phase وذلك قبل ٥٩٠ مليون سنة.

يقع حوض وادي القويعية ضمن الدرع العربي ما عدا الأجزاء السفلية منه التي تقع ضمن الرف العربي، إذ تغطي طبقات تكوين خف صخور الدرع العربي في تلك المنطقة. وتتكون طبقات خف بشكل رئيس من الصخور الجيرية. ويمتد منكشف outcrop هذا التكوين من الجنوب إلى الشمال بمسافة ١٢٠٠كم تقريبا بين دائرتي عرض ١٨° و٢٨° شمالا. ويبلغ عرض هذا المنكشف عند مدينة القويعية حوالي ١٠كم. وتميل طبقات هذا التكوين بشكل عام نحو الشرق، حيث يتراوح ميلها بين درجة ودرجتين.(١٨) وتكوين خف في الحوض عبارة عن هضبة كويستا تنحدر بشدة (حافة) نحو الغرب والجنوب الغربي وتنحدر تدريجيا نحو الشرق (صورة رقم ٣). وتطور حافة الكويستا مرتبط بميل وصلابة الطبقات الصخرية لتكوين خف وبالعمليات الجيومورفولوجية المسؤولة عن التراجع المتوازي للمنحدرات.

يسمى المنحدر الخلفي للكويستا backslope محليا بظهر الصفراء ويتكون من أرض صخرية مستوية وتنتشر عليها جلاميد مزواة من حطام الصخور، ولكن تغطيها أحيانا طبقة تختلف سماكتها من المواد المفككة الناتجة عن عمليات التجوية. ومن الواضح أن عمليات التجوية بنوعيها تلعب دورا رئيسا في تكسير الصخور فيها وتحللها. كما أن الرياح والجريان الغطائي يعملان أيضا على إزالة المواد المفككة صغيرة الحجم وبالتالي تركزها في بعض أجزائها.

يقطع المجرى الرئيس للحوض الصخور الجيرية لتكوين خف في واد عميق (٧٠م تقريبا) وضيق نسبيا (٥, ١كم) تشغله مدينة القويعية. ويفصل هذا الوادي هضبة الكويستا

---

(١٧) Vaslet et al., "Geologic Map."

(١٨) Ibid.



صورة رقم ٣. حافة الكويستا لطبقات الصخور الجيرية المائلة التي تغطي صخور الدرع العربي.

في الحوض الى جزئين أحدهما إلى الشمال من المدينة والآخر إلى الجنوب منها. وباستخدام الخرائط الطبوغرافية مقياس ١ : ٥٠٠٠٠ وجد أن ارتفاع حافة الكويستا يبلغ ٦٠م عن سطح الأرض المجاورة. وتبين أيضا أن درجات الانحدار لمنحدرها الغربي (حافة الكويستا) تتراوح بين ٣٥° و٤٠°. أما المنحدر الخلفي للكويستا backslope ، فوجد أن درجة انحداره حوالي درجة واحدة.

تتكون الأجزاء العليا للحوض من جبال عالية نسبيا (١٥٠م عن سطح الأرض) تمثل جزءا من الجانب الصاعد لصدع كبير في المنطقة يمتد من الشمال إلى الجنوب ويطلق عليه في الدراسات السابقة صدع الأمار-ادساس وأحيانا يطلق عليه صدع مرقان نسبة إلى قرية مرقان. وتتكون هذه المنطقة من كتلتين جبليتين يطلق على إحداهما جبل أم الفهود وإلى الجنوب منها جبل الأشقر. ويقع إلى الشرق من هذه الجبال أرض قليلة التضرس (سهول التعرية erosional plains) تطل عليها بجبهة mountain front شديدة الانحدار. ولقد تبين من الخرائط الطبوغرافية أن درجات الانحدار لجبهة هذه الجبال تتراوح بين ٣٢° و٥٣°.

توجد في أجزاء متفرقة من الحوض، وخصوصا أطرافه الجنوبية والشمالية، مناطق تتكون من تلال تقطعها أودية الروافد المتشعبة (صورة رقم ٤). ويتضح من الصور الجوية والفضائية أن عددا كبيرا من الروافد الصغيرة تصرف مياه تلك المناطق، وأن شبكة المجاري فيها تأخذ النمط الشجري. وتتكون بطون الأودية بشكل رئيس من المجاري المائية النشطة حاليا ومن سفوح محدبة خفيفة الانحدار يتراوح انحدارها بين أقل من درجة وخمس درجات يطلق عليها في الأدب الجيومورفولوجي بيديمنتات pediments مفردها بيديمنت،[١٩] وفي هذه الدراسة استخدم مصطلح سفوح الحضيض للتعبير عن هذا الشكل الأرضي. وسفوح الحضيض (البيديمنتات) عبارة عن أراض صخرية محدبة قليلة الانحدار



صورة رقم (٤). تلال تقطعها أودية تمتد على جوانبها سفوح الحضيض (البيديمنتات).

(١٩) صلاح الدين بحيري، *أشكال الأرض* (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٨م)؛ يحيى فرحان وآخرون، *دراسات في جيومورفولوجية جنوب الأردن* (عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٩م)؛ حسن سيد أبو العينين، *أصول الجيومورفولوجيا: دراسة الأشكال التضاريسية لسطح الأرض*، ط١١ (الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٩٥م).

تتطور عند حضيض منحدرات التلال والجبال وتغطيها في بعض الأحيان طبقة غير سميكة من المواد الصخرية المفككة، ويكون التغير في درجة الانحدار كبيرا بينها وبين منحدرات التلال والجبال. ويذكر Bloom [٢٠] أن سفوح الحضيض تشبه المراوح الفيضية في الشكل والوظائف ويتمثل الفرق بينهما في أن سفوح الحضيض ناتجة عن عمليات التعرية والمراوح الفيضية ناتجة عن عمليات الترسيب. وتوجد العديد من النظريات التي تشرح نشأة سفوح الحضيض وتطورها، فهناك من يعزو تشكيل سفوح الحضيض إلى التراجع المتوازي للمنحدرات مع انضباط لدرجة انحدار هذه السفوح لتسمح بحدوث جريان غطائي قادر على نقل المواد المفككة من حضيض منحدرات التلال. وهناك من يرى أن تشكل سفوح الحضيض ناتج عن النحت الجانبي لقواعد (أقدام) المنحدرات basal undercutting بفعل المياه الجارية. ويرجح Goudie and Wilkinson [٢١] تعدد العمليات المسؤولة عن تشكيل سفوح الحضيض.

تفصل سفوح الحضيض في أغلب الأحيان بين المجاري المائية ومنحدرات جوانب الأودية في مناطق التلال المتقطعة بحوض وادي القويعية. ولذا فإن اتساع بطون الأودية في هذه المناطق يختلف وفقا لاتساع سفوح الحضيض فيها. ويكون امتداد سفوح الحضيض أكبر في مناطق التقاء الروافد مع المجاري الأكبر منها. فسفوح الحضيض في مناطق التقاء المجاري تأخذ بشكل عام الشكل المخروطي والتي يطلق عليها في الأدب الجيومورفولوجي خلجان سفوح الحضيض pediment embayments (المراوح الصخرية rock fans). ويختلف امتدادها في الكتلة الجبلية، إذ إنه يكون محدودا في بعض الأماكن ولكن هذه الخلجان تمتد مسافات كبيرة نسبيا في أماكن أخرى. ويعتقد أن تشكل هذه الخلجان مرتبط بدرجة كبيرة بتأرجح المياه الجارية في الروافد ونحتها لقاعدة المنحدر في كلا الجانبين.

يتكون معظم الحوض من أرض قليلة التضرس يعتقد أنها سهول تعرية erosional plains.

---

(٢٠) A. Bloom, *Geomorphology: A Systematic Analysis of Late Cenozoic Landforms,* 3rd ed. (Upper Saddle River, New Jersey: Prentice Hall, 1998).

(٢١) A.S. Goudie and J.C. Wilkinson, *The Warm Desert Environment* (Cambridge: Cambrige University Press, 1977).

وتصنف سهول التعرية إلى أنواع ليس حسب خصائصها السطحية بل وفقا لنشأتها مثل شبه السهل peneplain كما في نموذج ديفز Davis لتطور الأشكال الأرضية، والسهل الصخري pediplain كما في نموذج كنج King ، والسهل الصخري المجوى etchplain كما في نموذج بدل Budel . على أية حال، نشأة سهول التعرية الصحراوية والتلال-الجبال المنفردة فيها موضع خلاف كبير بين كثير من الجيومورفولوجيين وخصوصا في الستينات وأوائل السبعينات. ولكن كثيرا من الجيومورفولوجيين في الوقت الحاضر يعتقدون بتعدد العمليات المسؤولة عن تكوين هذه الأشكال الأرضية واختلاف نشاطها مكانيا وزمانيا. ولذا فإن الحصول على نموذج شامل لهذا الغرض أمر في غاية الصعوبة.[٢٢] ولقد خصص Cooke et al. [٢٣] الفصل الخامس عشر من كتابهم لاستعراض ومراجعة النماذج التي قدمت لشرح نشأة الجبال والسهول mountain-plain وتطورها في الصحاري.

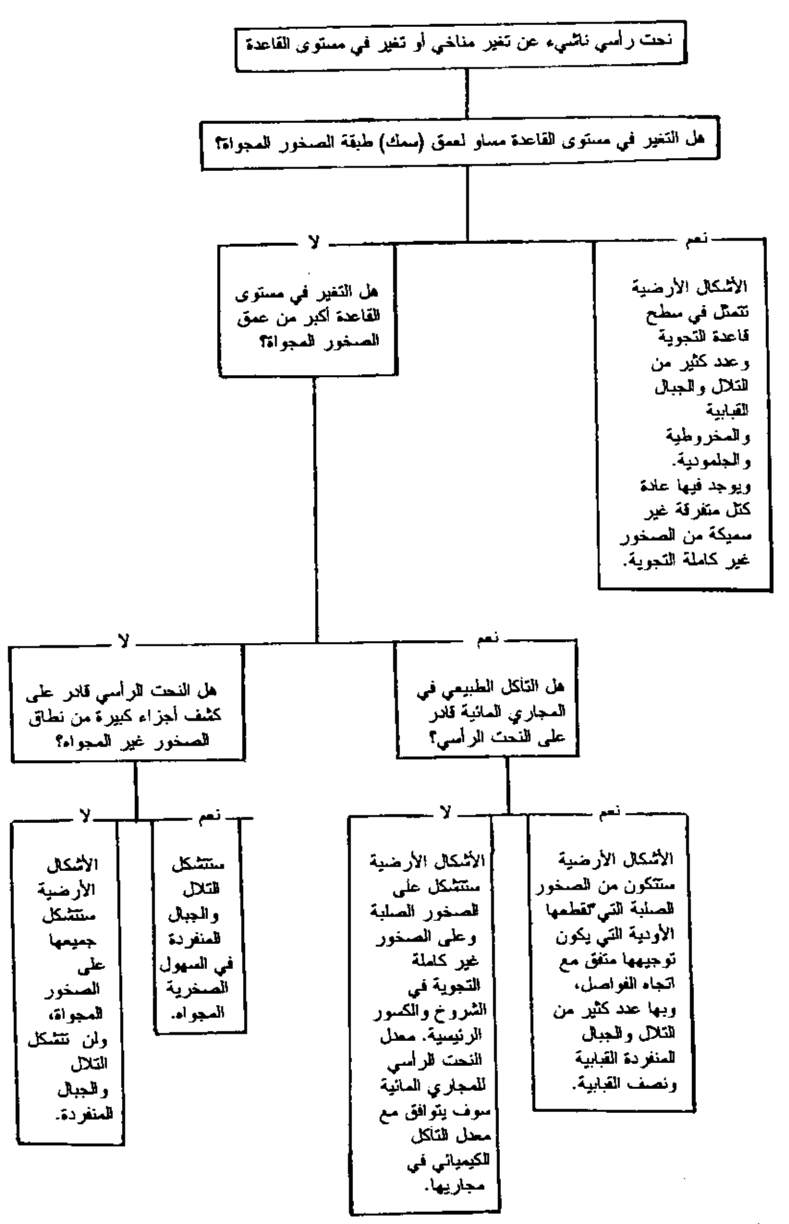
يعتقد أن نشأة سهول التعرية والتلال- الجبال المنفردة وتطورها في حوض وادي القويعية يمكن شرحها من خلال نموذج بروك Brook [٢٤] المبني على افتراض أن التلال المنفردة يمكن أن تنشأ فوق السطح أو تحت السطح (شكل رقم ٤). ويجمع هذا النموذج بين نموذج تكون السهول الصخرية pediplanation (نموذج King)، ونموذج تكون السهول الصخرية المجواة etching (نموذج Budel) المتضادين. فنموذج تكون السهول الصخرية يفترض أن تشكيل سهول التعرية والتلال-الجبال المنفردة ناجم عن عملية تراجع المنحدر المتوازي وعمليات تكون البيديمنت pedimentation . أما نموذج تكون السهول الصخرية المجواة فإنه يفترض أن نشوء هذه الأشكال يتضمن مرحلتين، أولاهما هي تطور الثرى regolith بفعل التجوية الكيميائية والمرحلة الثانية تعريته.

---

(٢٢) Goudie and Wilkinson, *Warm Desert*; G.A. Brook, "A New Approch to the Study of Inselberg Landscapes," *Z. Geomorph. N.F.*, Suppl. Bd.31 (1978), 138-60; R.J. Small, *The Study of Land Forms: A Textbook of Geomorphology*, 2nd ed. (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1978); *idem., Geomorphology and Hydrology* (London: Longmans, 1989); R.J. Chorley et al., *Geomorphology* (London: Methuen, 1984); C. R. Twidale, "The Origin and Implication of Some Erosional Landforms, "*Journal of Geology*, 98 (1990), 343-64; A. L. Bloom, *Geomorphology*, 3rd ed. (Upper Saddle River, NJ: Prentice Hall, 1998).

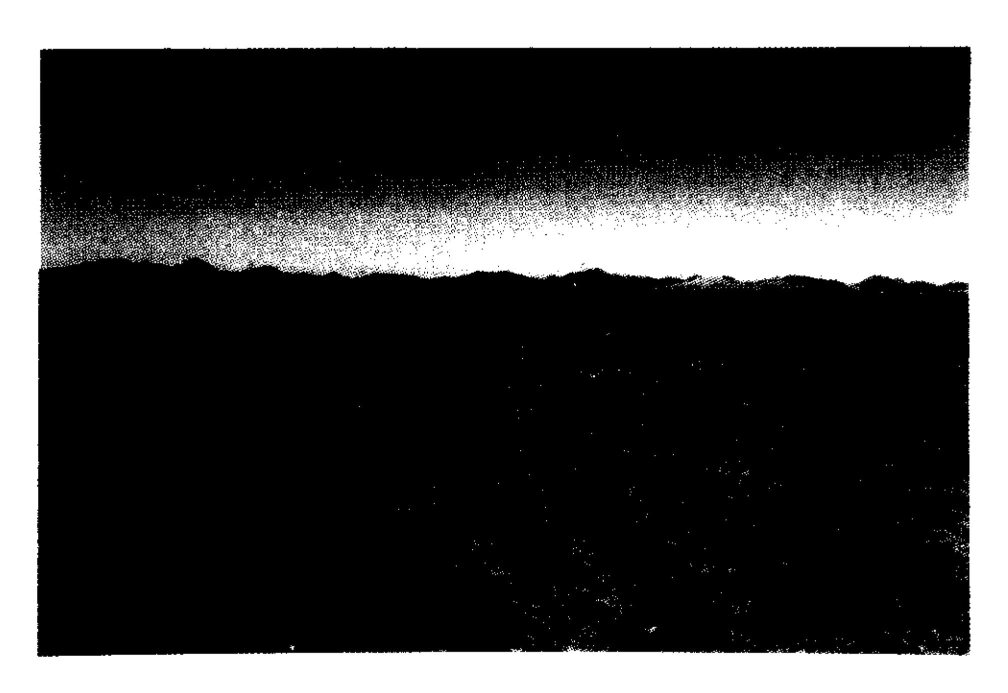
(٢٣) U. R. Cooke et al., *Desert Geomorphology* (London: UCL Press Ltd., 1993).

(٢٤) Brook, "A New Approach."



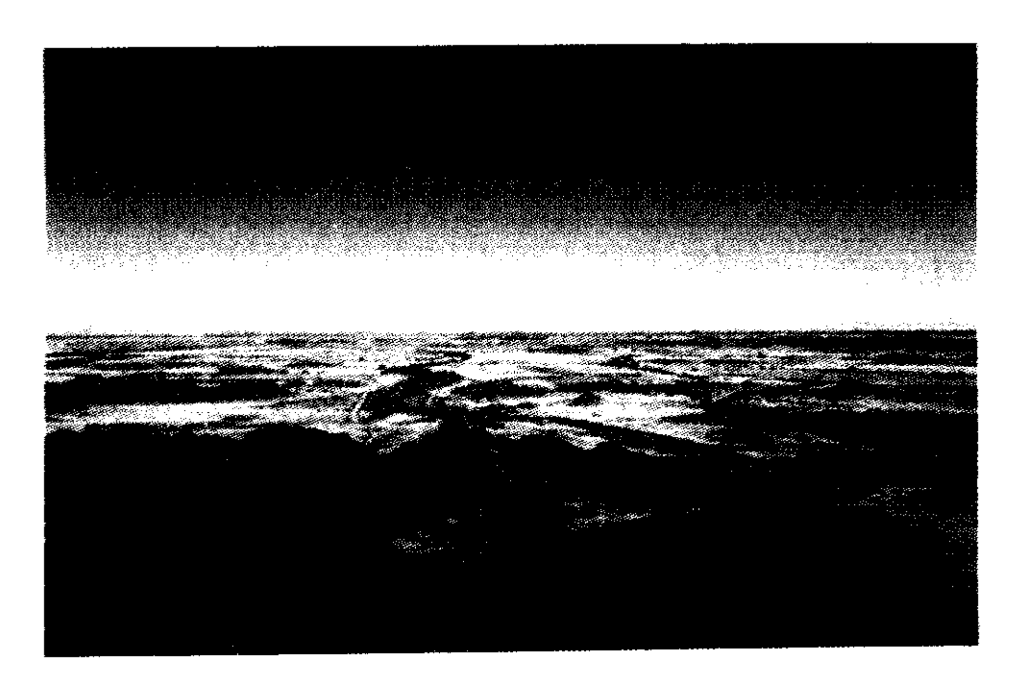
شكل رقم ٤ . نموذج تطور التلال والجبال المنفردة.

تتكون سهول التعرية في الأجزاء الغربية والشرقية من الحوض من أرض ذات تضرس قليل يميل إلى التحدب، وتتألف بشكل رئيس من صخور غير مجواة تغطيها في أغلب الأحيان طبقة غير سميكة من المواد المفككة. ويعتقد أن تشكل هذه السهول في الأصل ناتج عن التحام سفوح الحضيض (البيديمنتات) مع بعضها البعض. والأرض قليلة التضرس الناتجة عن التحام سفوح الحضيض يطلق عليها مصطلح السهل الصخري pediplain . وعليه فإنه من المرجح أن السهل الصخري إلى الشرق من جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس والسهل الصخري إلى الغرب قليلا من طبقات الصخور الجيرية لتكوين خف مرتبطان بعمليات تكون سفوح الحضيض pedimentation والتراجع المتوازي لمنحدرات جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس في غرب الحوض وطبقات الصخور الجيرية في شرقه (صورة رقم ٥). وعلى العكس من السهل الصخري في غرب الحوض تنتشر التلال والجبال المنفردة في السهل الصخري في شرقه.



صورة رقم ٥ . سهل صخري يقع إلى الشرق من جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس.

تتكون سهول التعرية في وسط الحوض من طبقة قليلة السمك من المواد المفككة والتي تغطي طبقة من الصخور الجرانيتية المجواة يصل عمقها إلى ٢٠م، وعليه فإنه من المرجح أنها سهول صخرية مجواة etchplains (صورة رقم ٦). ويوجد في هذه السهول عدد كبير من التلال المنفردة قليلة الارتفاع والتي تتمثل بشكل رئيس في التلال الجلمودية koppies والرجوم الطبيعية tors وظهر الحوت whaleback . كما يوجد فيه سطوح (أرصفة) صخرية مستوية شبه دائرية rock pavements وغير مجواة وارتفاعها محدود جدا عن الرواسب المحيطة بها (صورة رقم ٧). وعليه فإنه يعتقد أن التلال المنفردة في هذا الجزء من الحوض تشكلت في الأصل تحت السطح بسبب التجوية التفاضلية المرتبطة بأنماط الفواصل joint patterns ونظام الشقوق fracture systems في الصخور الجرانيتية، ثم تعرضت للنحت التفاضلي مما أدى إلى ظهورها على السطح.



صورة رقم ٦ . سهل صخري مجوى تم تصويره من قمة أحد التلال المطلة عليه في الأجزاء الجنوبية من الحوض.



صورة ٧ . سطح صخري مستو شبه دائري يتكون من صخور غير مجواة ولا يرتفع عن سطح السهل الصخري المجوى سوى سنتيمترات .

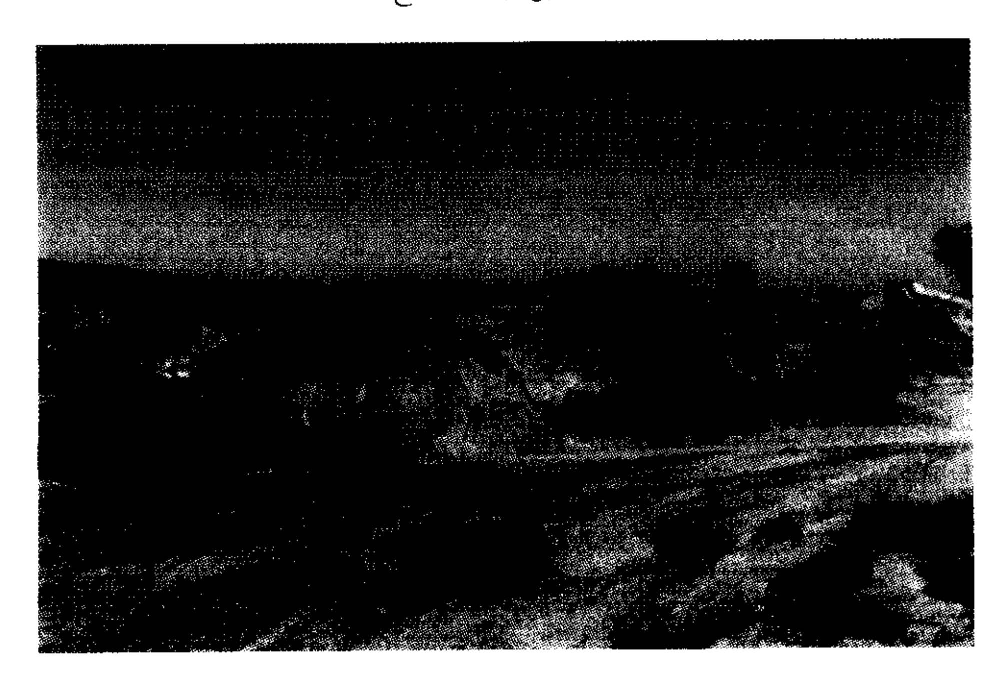
كانت عمليات المياه الجارية (نحت ونقل وترسيب) ولا زالت تلعب دورا بارزا في الحوض . فبلا شك أن نشاط العمليات المرتبطة بالمياه الجارية كانت أكثر نشاطا في الفترات الرطبة الماضية . ولكن هذا لا يعني توقف نشاط المياه الجارية في تشكيل سطح الأرض في هذه البيئة الجافة . فعلى الرغم من قلة الأمطار في الحوض (حوالي ١١٧م في السنة) إلا أنها قد تسقط بكثافة عالية ، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث الجريان السطحي وبالتالي حدوث العمليات النهرية التي لا تزال تسهم في تشكيل سطح الأرض في الحوض (صورة رقم ٨) . ففي هذه الصورة يظهر جرف لمنعطف المجرى يتجاوز ارتفاعه المترين ، معطيا بذلك قطاعا رأسيا للرواسب في هذا الجزء من الحوض . ففي هذا المقطع يبلغ سمك الرواسب الفيضية حوالي ١٣٠سم ؛ أما الجزء الأسفل منه (حوالي ٨٠سم) يتكون من صخور جرانيتية مجواة بدرجة عالية . ففي الوقت الحاضر ، النحت الجانبي والانهدامات

(الانهيارات) الأرضية لاشك أنها تحدث في هذا المنعطف . وهذا يدل على أن المياه الجارية لا تزال تلعب دورا بارزا في نحت وإزالة الصخور المجواة على الأقل في الأجزاء العليا والوسطى من الحوض . وعليه فإنه من المرجح أن يؤدي ذلك إلى كشف كتل صخرية غير مجواة ومن ثم بروزها على السطح (صورة رقم ٩) . ففي هذه الصورة تظهر كتلة صخرية قبابية على جانب المجرى المائي وتقع إلى الشرق من جرف المنعطف المبين في الصورة السابقة وذلك بمسافة ١٥٠م تقريبا .



صورة رقم ٨ . جرف لمنعطف أحد المجاري المائية في أعلى الأجزاء الوسطى من الحوض .

التلال والجبال المنفردة بمفهومها الواسع في حوض وادي القويعية تختلف في أحجامها وأشكالها وتتضمن التلال والجبال القبابية والجلمودية والمخروطية والضلوع وكذلك الرجوم الطبيعية وظهر الحوت . وبالرغم من وجود العديد من التلال والجبال المنفردة في السهول الصخرية المجواة إلا أنه من الواضح أن نشأة التلال والجبال المنفردة



صورة رقم ٩ . كتلة صخرية قبابية تمثل جانب المجرى المائي وتقع إلى الشرق من المنعطف بمسافة ١٥٠م تقريبا .

القريبة من الحزام الجبلي للحوض يمكن شرحها من خلال نموذج تكون السهول الصخرية pediplanation . كما أنه من الواضح أن التلال والجبال المنفردة في السهول الصخرية المجواه تتعرض لإعادة تشكيل تتفق مع النموذج الأخير (صورة رقم ١٠) . ففي هذه الصورة يظهر أحد التلال المنفردة في السهل الصخري المجوى. ويقع هذا التل بالقرب من إحدى الآبار المحفورة في الصخور الجرانيتية المجواة، وبالرغم من أن سمك طبقة الصخور المجواة في هذه البئر تصل إلى أكثر من ١٥م إلا أنه من الملاحظ (كما تظهره الصورة) تطور سفوح الحضيض الصخرية في هذه المنطقة .

تعد عمليات التجوية بنوعيها الميكانيكية والكيميائية وكذلك العمليات المرتبطة بالمياه الجارية أهم العمليات الجيومورفولوجية المسؤولة عن تشكيل سطح الأرض في الحوض . فعمليات التجوية تمثل الحلقة الأولى من سلسلة العمليات الجيومورفولوجية الخارجية . والأودية في الحوض تم نحتها في الصخور بفعل الجريان السطحي . فالمياه الجارية تقوم



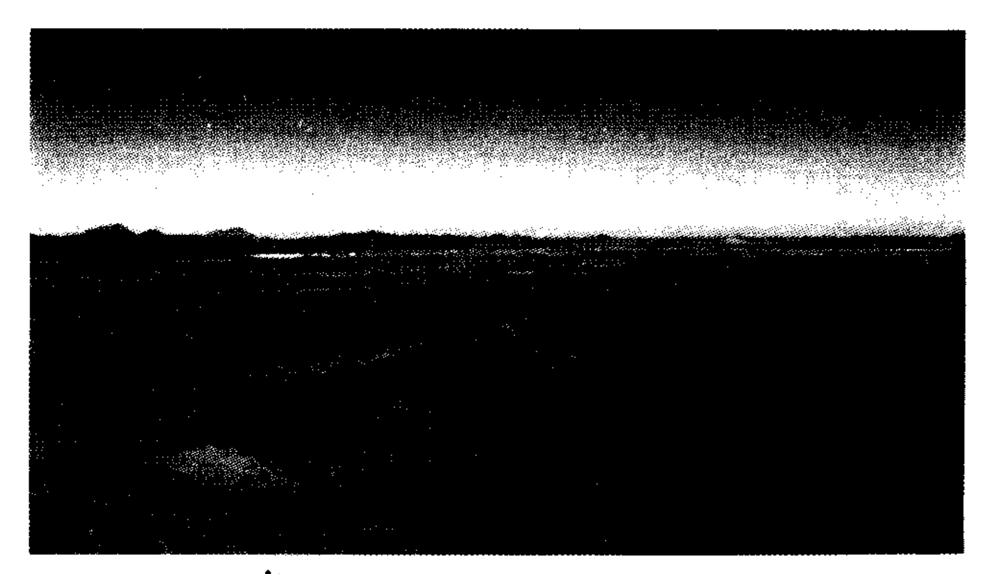
صورة رقم ١٠ . تل جلمودي في السهول الصخرية المجواة يتعرض لإعادة تشكيل تتفق مع نموذج تكون السهول الصخرية.

بعملها (النحت والنقل) لأنها تمتلك طاقة، ودائما تعمل على تحقيق التوازن بين ما تقوم به من عمل وبين ما تمتلك من طاقة. فإذا انخفضت الطاقة بسبب انخفاض السرعة فإن تحقيق التوازن يتم من خلال عملية الترسيب. والأشكال الأرضية الرئيسة المرتبطة بالترسيب النهري هي رواسب الأودية والمروحة الفيضية للحوض. وتختلف رواسب الأودية في سماكتها من مكان إلى آخر، فهي بشكل عام لا تمثل سوى أمتار قليلة في الأجزاء العليا ومعظم الأجزاء الوسطى من الحوض، ولكنها تزداد باتجاه المروحة الفيضية إذ تزيد على ٣٠م عند رأس المروحة الفيضية.

يقطع المجرى الرئيس للحوض بالقرب من مدينة القويعية صخور تكوين خف الجيرية في واد عميق وضيق نسبيا، وبعد مسافة ٦كم تقريبا يخرج إلى أرض واسعة وقليلة الانحدار تسمى محليا حدبا قذلة. وبقياس معدل الانحدار من الخرائط الطبوغرافية وجد أنه أقل من درجة (٣, ٠ درجة) في حدبا قذلة. وبسبب التغير في طبيعة جريان المياه في

هذه الأرض المنبسطة تشكلت المروحة الفيضية للحوض. والمروحة الفيضية لهذا الحوض تظهر على مصفوفة الصور الجوية وعلى الصورة الفضائية بلون فاتح نسبيا مقارنة بالمروحة الفيضية لحوض وادي الخنقة المجاورة لها من الناحية الشمالية. وربما يعود ذلك إلى اختلاف الصخور في الحوضين وبالتالي اختلاف مكوناتها المعدنية. فعلى العكس من حوض وادي الخنقة، يتكون حوض وادي القويعية بشكل رئيس من الصخور الجرانيتية التي تحتوي على نسبة كبيرة من معدن الكوارتز شديد المقاومة للعمليات الجيومورفولوجية.

يوجد في الجزء الغربي من الحوض سهول تتكون من خليط من المواد المفككة الناعمة التي تتركز على سطوحها طبقة من الحجارة ذات الأشكال والأحجام المختلفة وتسمى محليا بالحزوم، مفردها حزم (صورة رقم ١١). ولكن في الكتب الجيومورفولوجية باللغتين العربية والإنجليزية يطلق عليها مصطلح الحمادة hamada أو الرق reg . ويعتقد أنها رواسب فيضية عملت الرياح والجريان الغطائي على إزالة المواد الصغيرة الحجم مما أدى إلى تركز الحجارة على السطح، وربما أن تعاقب التبلل والجفاف له دور أيضا في تحريك الحجارة نحو السطح.(٢٥)



صورة رقم ١١ . حمادة (حزم) وتظهر في الصورة جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس.

(٢٥) Goudie and Wilkinson, *Warm Desert.*

الخلاصة والخاتمة

لقد تمخض عن هذه الدراسة خريطة جيومورفولوجية متوسطة المقياس لحوض وادي القويعية تبين التوزيع الجغرافي للأشكال الأرضية الرئيسة مصنفة حسب نشأتها. ويصرف هذا الحوض بشكل رئيس مياه منطقة جرانيتية تتكون بشكل عام من أرض صخرية قليلة التضرس (منبسطة نسبيا) تغطي معظم أجزائها طبقة غير سميكة من المواد الصخرية المفككة المنقولة وغير منقولة. وتظهر في هذه الأرض المنبسطة نسبيا العديد من الجبال والتلال المنفردة (المنعزلة). أما المناطق المحيطة بها فتتكون بشكل رئيس من جبال وتلال تقطعها الأودية. وبشكل عام، ينحدر السطح في الحوض تدريجيا نحو الشمال الشرقي، الأمر الذي يجعل المجرى الرئيس يتبع الانحدار العام نفسه. فالمجرى الرئيس فيه يبدأ من جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس في الغرب ويتجه نحو الشمال الشرقي إلى أن يخرج إلى أرض سهلية شرق مدينة القويعية تتشكل عليها مروحته الفيضية.

يعتقد أن نشأة سهول التعرية والتلال-الجبال المنفردة وتطورها في حوض وادي القويعية يمكن شرحها من خلال نموذج بروك Brook الذي يجمع فيه بين نموذج تكون السهول الصخرية pediplanation ونموذج تكون السهول الصخرية المجواة etching المتضادين. فمن المرجح أن السهل الصخري إلى الشرق من جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس والسهل الصخري إلى الغرب قليلا من طبقات الصخور الجيرية لتكوين خف مرتبطان بعمليات تكون سفوح الحضيض والتراجع المتوازي لمنحدرات جبال الجانب الصاعد لصدع الأمار-ادساس في غرب الحوض وطبقات الصخور الجيرية في شرقه.

تتكون سهول التعرية في وسط الحوض من طبقة قليلة السمك من المواد المفككة والتي تغطي طبقة من الصخور الجرانيتية المجواة يصل عمقها إلى ٢٠م، وعليه فإنه من المرجح أنها سهول صخرية مجواة etchplains. ولذا يعتقد أن التلال المنفردة في هذا الجزء من الحوض تشكلت في الأصل تحت السطح بسبب التجوية التفاضلية ثم تعرضت للنحت التفاضلي مما أدى إلى ظهورها على السطح. وبالرغم من وجود العديد من التلال والجبال المنفردة في السهول الصخرية المجواة إلا أنه من الواضح أن نشأة التلال والجبال المنفردة القريبة من الحزام الجبلي للحوض يمكن شرحها من خلال نموذج تكون السهول الصخرية pediplanation. كما أنه من الواضح أن التلال والجبال المنفردة في السهول الصخرية المجواة تتعرض لإعادة تشكيل تتفق مع النموذج الأخير.

The Geomorphological Map of Wadi Al-Quwayiyah Basin, Central Saudi Arabia

Mohammed Abdullah Al-Saleh

Associate Professor, Department of Geography,
College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract . The availability of geomorphological information is valuable for environmental management and natural resources evaluation. However, geomorphological studies in the Al-Quwayiyah region are scarce. The geomorphological map is a method that can provide an outline of landforms. Therefore, the main objective of this study is to construct a medium scale geomorphological map of the Al-Quwayiyah drainage basin. Thus this paper presents a geomorphological map that portrays, in their spatial relationships, the major landforms in the basin. Besides, it provides a thorough description of the main geomorphological features and their development.